سلسلة شروحات وتطريزات فضيلة الشيخ (٢١)

شرح
بهجة الطلب
في آداب الطلب

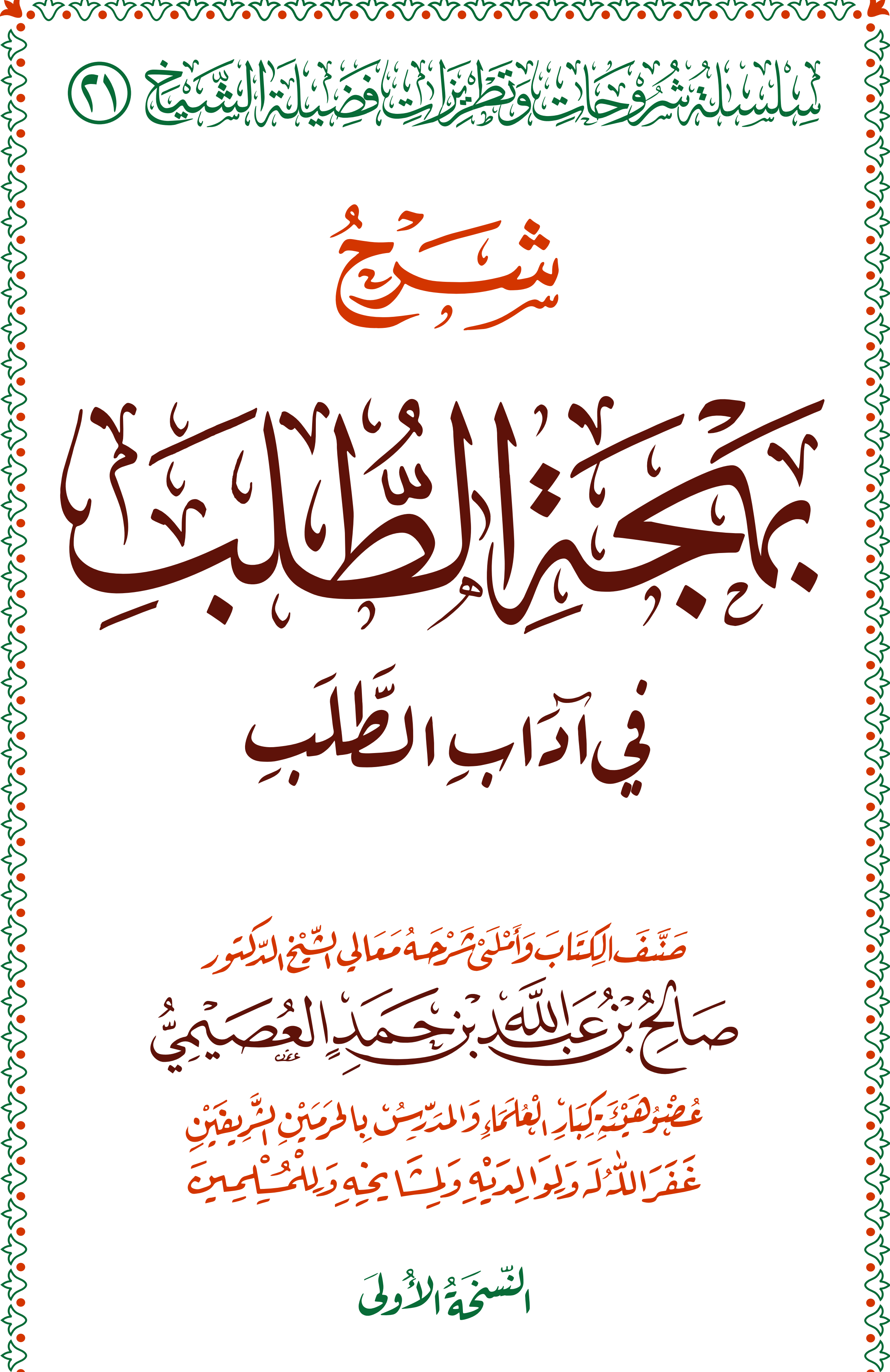
صنف الكتاب وأملى شرحه معالي الشيخ الدكتور
صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي
عضو هيئة كبار العلماء والمدرس بالحرمين الشريفين
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

النسخة الأولى





شرح
بهجة الطلب
في آداب الطلب

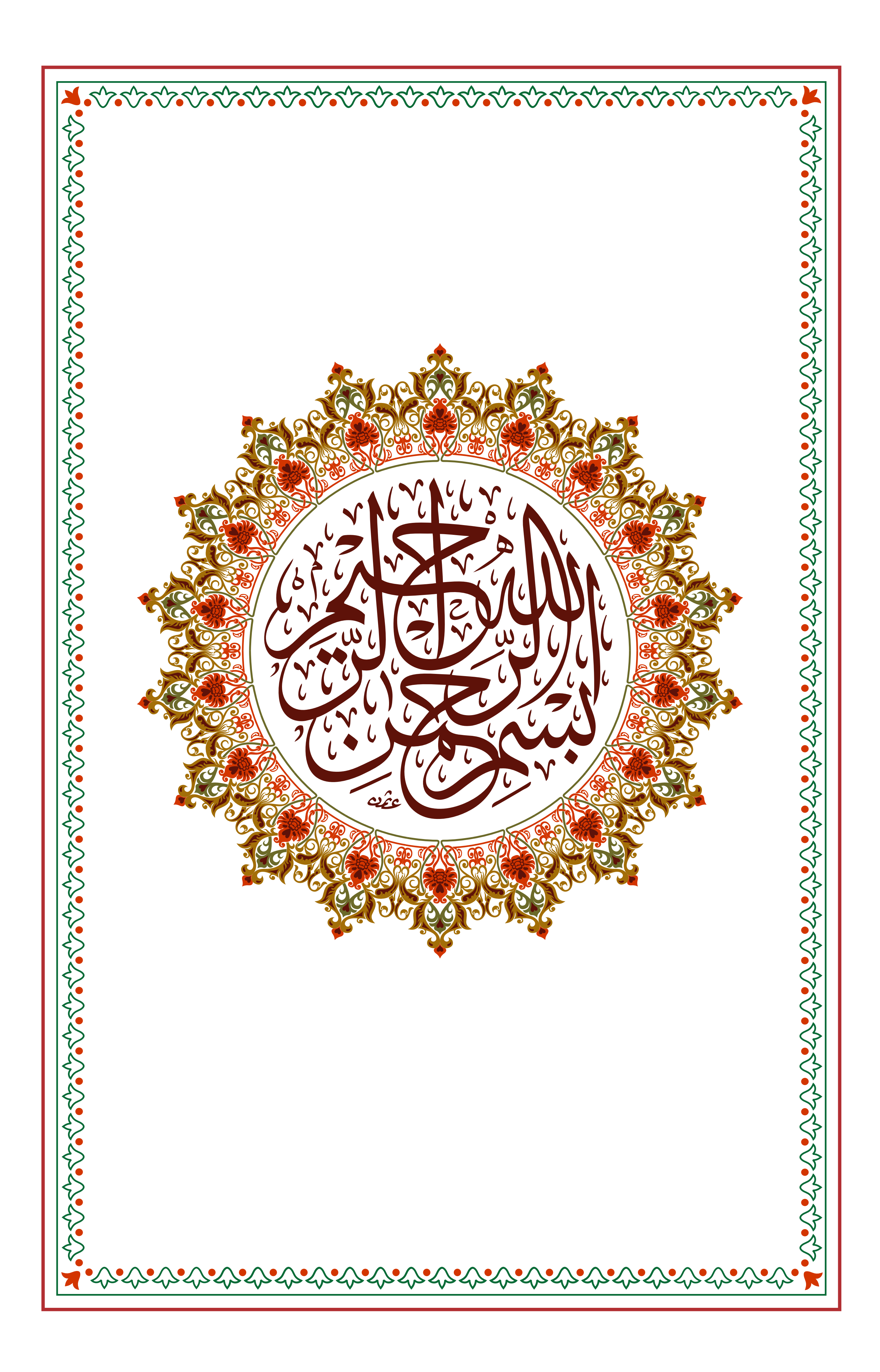


سلسلة شروحات وتطريزات فضيلة الشيخ (٢١)

شرح
بهجة الطلب
في آداب الطلب

صنف الكتاب وأملى شرحه معالي الشيخ الدكتور
صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي
عضو هيئة كبار العلماء والمدرس بالحرمين الشريفين
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

النسخة الأولى

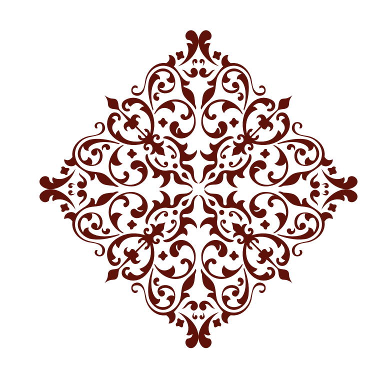

بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله الَّذي جعل للعلم أُصولًا، وسَهَّل بها إليه وُصولًا، وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحدَه لَا شريك لهُ، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسوله صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه مَا بُيِّنَت أُصول العلومِ، وسَلَّم عليه وعليهم ما أُبْرِزَ المَنْطُوقُ منها والمفهومُ.

أمَّا بعدُ:

فَهٰذَا شَرْح (الكتابِ الأوَّلِ) مِنَ (المُستَوى الثَّاني) مِنْ برنَامجِ (أُصُولِ العلمِ) في (سنتِهِ الخامسةِ)؛ سبعٍ وثلاثينَ وأربعمائةٍ وألفٍ، وَثمانيةٍ وثلاثينَ وأربعمائةٍ وَألفٍ. وهو كتابُ «بَهْجَةُ الطُّلَب فِي آدَابِ الطَّلَب»، لمصنِّفه صالحِ بنِ عبد اللهِ بنِ حمدٍ العصيميِّ.



قالَ النَّاظم وفَّقـه اللّه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْـــــدُ للهِ لَهُ الإِحْـــكَامُ ثُـمَّ الصَّــلَاةُ بَعْـدُ وَالسَّــلَامُ
عَلَى مُحَمَّـــــدٍ رَسُـــولِ اللهِ وَآلِهِ طُـــرًّا بِـــلَا تَنَـــاهِي
وَبَعْــدُ ذِي أُرْجُـــوزَةٌ جَـدِيرَهْ بِــالحِفْظِ وَالإِدْرَاكِ بِالبَصِـــيرَهْ
لِلُّؤْلُــؤِي تُعْـزَى أَوِ المَــأْمُونِ وَنَصُّـــهَا المَجْـــلِيُّ لِلْعُيُـــونِ

❁ ❁ ❁

قال الشَّارح وفّقه اللّه:

ٱبتدأَ النَّاظِمُ وفَّقه اللهُ منظومتَهُ بالبسملةِ، ثمَّ ثَنَّى بالحمدلةِ، ثم ثَلَّثَ بالصَّلاة والسَّلام على رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقرونةً بالصَّلاة والسَّلام على آلِهِ.

وهَٰؤُلَاءِ الثَّلاث من آدابِ التَّصنيفِ ٱتِّفاقًا؛ فإنَّ من مُستحسنات الآدابِ في ٱبتداءِ التَّصانيف أنْ يُقدَّم في صَدرِها البسملةُ، ثمَّ يُثنَّى بالحمدلَة، ثمَّ يُثَلَّث بالصَّلاة والسَّلام على النَّبيِّ وعلى آله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعليهمْ أجمعينَ.

وأَكَّد النَّاظِمُ الصَّلاةَ عَلَى الآلِ بقولِه: (طُـرًّا)؛ أَيْ: جميعًا؛ تحقيقًا لشُمولِها آلَ النَّبيِّ كُلِّهم؛ وهم: بنو هاشمٍ القُرَشيُّونَ وأزواجُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فاسْمُ (آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَجْمَعُ شَيْئَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مَنْ نَسَلَ مِنْ ذُرِّيَّةِ هَاشِمٍ.

وَالآخَرُ: أَزْوَاجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وَلَوْ كُنَّ مِنْ غَيْرِ بَنِي هَاشِمٍ أَوْ قُرَيْشٍ.

وَالمَخْصُوصُونَ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ مِنَ الآلِ: هُمُ المُسْلِمُونَ مِنْهُمْ.

وجَعَل النَّاظمُ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ على النَبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وعلى آلِه ممدودةً غيرَ محدودةٍ لقوله: (بِلَا تَنَاهِي)؛ أيْ: بلا حَدٍّ تنتهي إليه.

والمَطلُوب شرعًا: الإِكثَارُ من الصَّلاةِ وَالسَّلَامِ على النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وعَلَى آلِهِ.

وَالمُرَادُ بِـ(الإِكْثَارِ): غَلَبَةُ الأَمْرِ عَلَى العَبْدِ حَتَّى يَتَمَيَّزَ بِهِ، فَالمُكثِرُ من الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ على النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وعلى آلِه هوَ الَّذِي يغلبُ عَلَى لِسَانِهِ ذِكْرُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عليه وعليهِمْ.

ورُوِيَتْ أَحَادِيثُ فِي جَعْلِ ذَٰلِكَ عَشْرًا، أَوْ مِائَةً، أَوْ خَمْسِينَ، أَوْ أَلْفًا؛ وَكُلُّ تِلْكَ الأحاديثِ لَا يَثْبُتُ مِنْهَا شَيْءٌ، فَالأَحَادِيثُ الوَارِدَةُ فِي تَقْدِيرِ عَدَدٍ يُصَلَّى وَيُسَلَّمُ بِهِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ضِعَافٌ لَا يَصِحُّ مِنْهَا شَيْءٌ.

واْسم (الإكثارِ) يحصل بغَلَبتها على لسان العبدِ؛ فمثلًا: المأمورُ به من الإكثارِ من الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ على النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ليلةَ الجمعةِ ويومَهَا لا يحصُل بعَدَدٍ مُعَيَّنٍ بأنْ تُصلِّيَ عشرًا أو خمسينَ أو مائةً أو ألفًا، وإنَّما يحصلُ بِأَنْ تَغلِبَ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على لسانِك في أحوالِكَ في تلك اللَّيلةِ ويومَهَا.

فلو قُدِّرَ أَنَّ أحَدًا صَلَّى وسَلَّم قطعةً من اليومِ جَلَس فيهَا فصلَّى وسلَّم خَمسينَ أو مائةً؛ فاسمُ (الإكثَارِ) لا يتحقَّق عليهِ، وإنَّما يتحقق بِأَنْ تَغلِبَ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على لسانِه في جميع ذَٰلِكَ اليوم وليلته.

وَمِنْ حِسَانِ المَأْثُورَاتِ: مَا رَوَاهُ قَوَّامُ السُّنَّةِ الأَصْبَهَانِيُّ فِي كِتَابِ «فَضَائِلِ الأَعْمَالِ»، عَنِ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ رَحِمَهُٱللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: «عَلَامَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ: كَثْرَةُ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ».

ثمَّ ذَكَر النَّاظم أنَّ المسوقَ هنَا من نَظْمِهِ حقيقٌ بأمرينِ، هو جديرٌ بهما:

أحدهما: الحفظُ للمَبَانِي.

والآخر: الفهمُ للمعانِي.

فِي قولِهِ:

وَبَعْدُ ذِي أُرْجُوزَةٌ جَدِيرَهْ بِالحِفْظِ وَالإِدْرَاكِ بِالبَصِيرَهْ

فقولُه: (**بِالحِفْظِ**)؛ إشارةٌ إلى حِفْظ المباني.

وقوله: (**وَالإِدْرَاكِ بِالبَصِيرَهْ**)؛ إشارةٌ إلَى فَهْمِ المعانِي؛ لِأَنَّ **الإِدْرَاكَ** حَقِيقَتُهُ: الفَهْمُ، **وَآلَتُهُ:** البَصِيرَةُ القَلْبِيَّةُ، فمَنْ وَجَّه بصيرتَهُ القلبيَّة في وَعْيِ شيءٍ فَهِمَهُ وأَدْرَكَهُ.

وَهٰذِهِ المنظومةُ الَّتي ٱصْطفَاهَا ناظمُهَا لتكونَ رأسَ ما يُحْفَظُ في آدابِ الطَّلَب مِمَّا شُهِرَ بعضُ أبياتهَا مُرْسَلًا، فَسَتَعلم فيمَا يُستقبَل أنَّ هٰذِهِ المنظومةَ ممزوجةٌ بينَ نَظْم ناظمِهَا الَّذي جَعَلَ لَهَا مُقَدِّمَةً وخاتمةً، مَعَ أبياتٍ تُنسَب لغيرِهِ؛ هيَ المبدوءة بقوله: (ٱعْلَمْ بِأَنَّ العِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ) إلَى تمام المنظومَةِ؛ سوى البيتِ الأخيرِ.

فَمَا بَيْنَ المُقَدِّمَةِ وَالخَاتِمَةِ ٱخْتُلِفَ فِي قَائِلِهِ، فَعُزِيَ إِلَى رَجُلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: اللُّؤْلُؤِيُّ؛ وَهِيَ نِسْبَةُ جَمَاعَةٍ، أَشْهَرُهُمْ: الحَسَنُ بْنُ زِيَادٍ اللُّؤْلُؤِيُّ، مِنْ فُقَهَاءِ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ النُّعْمَانِ.

وَالآخَرُ: المَأْمُونُ؛ وَهُوَ لَقَبُ الخَلِيفَةِ العَبَّاسِيِّ عَبْدِ اللهِ بْنِ هَارُونَ القُرَشِيِّ المُطَّلِبِيِّ.

فَعُزِيَتْ إِلَى هٰذَا، وعُزِيَتْ إِلَى هٰذَا، وَلَمْ يُعْلَمْ قَائِلُهَا عَلَى وَجْهِ التَّحْقِيقِ.

وَلِصِحَّةِ معانيهَا، وَلَطَافَةِ مبانيهَا تَلَقَّاها أهلُ العلم بالقَبولِ، فَتَقَادَمَ ذِكْرُهمْ لهَا، وَأَقْدَمُ مَنْ ذَكَرَهَا - فيمَا يُعْلَم - هُوَ: أَبُو عُمَرَ ٱبْنُ عَبْدِ البَرِّ فِي «جَامِعِ بَيَانِ العِلْمِ وَفَضْلِهِ»، وَعَدَّهَا أَحْسَنَ مَا قِيلَ فِي آدَابِ الطَّلَبِ.

وقولُه: (وَنَصُّهَا المَجْلِيُّ لِلْعُيُونِ) مَعَ مَا بَعدَهُ؛ يَدُلُّ على أنَّ هٰذِهِ الأبياتَ الأربعةَ الأُولَى ليستْ من النَّظْمِ القديمِ الَّذي ذَكَره أبو عمر ٱبنُ عبد البرِّ وغيره؛ فَالأَبياتُ الأربعةُ الَّتي صُدِّرَتْ بِهَا المنظومةُ هي من نَظْمِي، ثمَّ خُتِمَت ببيتٍ جُعِل خَتْمًا لهَا.

فإنَّ العلم خَاصَّةً وَمَا يَنْفَعُ عَامَّةً إِذَا جُعِلَ بَيْنَ مُقَدِّمةٍ وَخَاتمَةٍ بَانَ نَفْعُهُ، وَٱعْتَبِرْ هٰذَا فِي إِنْزَالِ القُرْآنِ مُنَجَّمًا فِي سُوَرٍ - أَيْ: مُفَرَّقًا فِي نَسَقِ سُوَرٍ -، كُلُّ سُورَةٍ لَهَا مَطْلَعٌ هُوَ فَاتِحَتُهَا، وَلهَا مَقْطَعٌ هُوَ خَاتِمَتُهَا؛ فإنَّ الشَّيْءَ إِذَا جُمِعَ بَيْنَ طَرَفَيْنِ وُعِيَ وَأُدْرِكَ، ومنهُ: الشِّعْر المُرسَلُ، فإنَّه إذَا أُحِيطَ بمَا يدلُّ عليهِ ويُرْشِدُ إليه كَمُلَت منفعتُه، فهو الَّذي حَدا جامعَ هٰذِهِ النُّبْذَةِ في هٰذِهِ الأوراقِ إلى تَقديمِ أبياتٍ بينَ يَدَيْهَا وخَتْمِها ببيتٍ واحدٍ.

وسمَّى ذَٰلِكَ كُلَّهُ: «بَهْجَةَ الطُّلَّب فِي آداب الطَّلب».

وَالطُّلَّبُ: جَمْعُ طُلْبَةٍ؛ وَهِيَ: السَّفْرَةُ البَعِيدَةُ، فإنَّ منْ شعار العلمِ: الرِّحلَةُ فيهِ.

ومن مباهجِ الارتحَالِ: التَّزَيُّنُ بالآداب، فمَنِ ٱرتحلَ في العلم مُتَزِّينًا بالأدبِ أدرك بُغْيَتَه.

وجَعلَ النَّاظم هٰذَا الاسمَ لهَا مختومًا بقولِه: (فِي آدَابِ الطَّلَبِ)؛ لِأَنَّ آخِرَ شَطْر منها هو قَوْلُ ناظمها: (فَافْهَمْ هَدَاكَ اللهُ آدَابَ الطَّلَبْ).



قالَ النَّاظم رحمه اللهُ:

ٱعْلَمْ بِأَنَّ العِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ وَالحِفْظِ وَالإِتْقَانِ وَالتَّفَهُّمِ

❁ ❁ ❁

قال الشَّارح وفّقه الله:

من الأصول المُعِينةِ على حيازةِ العلمِ وجَمْعِهِ: التَّحلِّي بشِعارِ أهْلِ العلم في قولِهمْ: (العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ)؛ أيْ: بطَلَبِه وٱبتغائِه، فإنَّ أحَدَنَا لَا يُولَد عالمًا، وإنَّما يجمع العلمَ إلى نفسِه بطَلَبِه وإحصائِه وٱلتماسِه، وسَعْيُهُ في ذَٰلِكَ يُسَمَّى (تعلُّمًا).

فَإِنَّ (التَّفَعُّلَ) فِي كَلَامِ العَرَبِ: ٱسْمٌ لِمَا يُبْذَلُ فِيهِ كُلْفَةٌ؛ كـ(التَّعَلُّمِ، وَالتَّحَلُّمِ، وَالتَّكَلُّمِ)، فَإِنَّ الاتِّصاف بالعلمِ والحلمِ وحُسْنِ المنطقِ والكلامِ لا يُحصَّل دُفْعةً واحدةً، وإنَّما يُكابِد المرءُ مشقَّةً حتَّى يَصِلُ إِلَى مَطْلُوبِه منْ هٰذِهِ المذكوراتِ وغيرِهَا.

وَهٰذِهِ الجملةُ - (العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ) - رُوِيَتْ فِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وَلَا يَصِحُّ مِنْ طُرُقِهِ شَيْءٌ، وَثَبَتَ مَوْقُوفًا عَنِ ٱبْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَا يُولَدُ عَالِمًا، إِنَّمَا العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِ «الزُّهْدِ»، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وَقول النَّاظِمِ: (وَالحِفْظِ وَالإِتْقَانِ وَالتَّفَهُّمِ)؛ مِنْ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ فالمذكوراتُ منْ مسالِكِ التعلُّمِ؛ فَحِيَازة العلم وجَمْعُه تَحصُل بسلوكِ سُبُل مُوصِلةٍ إليهِ، من جُملَتِها: الحِفْظُ، والإتقانُ، والتَّفهُّمُ.

والمراد **بِالإِتْقَانِ**: الإِحْكَامُ، **ومُتَعَلَّقُه** على الحقِيقةِ: التَّحَفُّظُ وَالتَّفَهُّمُ؛ بأن يكونَ الحفظُ مُتقنًا والفَهم مُتقنًا، فمدارُ العلم عَلى التَّحَفُّظِ وَالتَّفَهُّم.

فَإِنَّ قُوَّةَ العِلْمِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَصْلَيْنِ: الحِفْظُ، وَالفَهْمُ، ذَكَرَهُ ٱبْنُ تَيْمِيَّةَ الحَفِيدُ، وَتُوجَدُ فِي

كَلَامِ غَيْرِهِ مِنْ قُدَمَاءِ فَلَاسِفَةِ اليُونَانِ.

فمَنْ أراد أن يُحصِّل العلم فإنَّه يَنالُه بالحرصِ علَى حِفْظِ ما يريدُه منهُ حِفْظًا مُحكمًا مُتقنًا، وَيَقْرِنُ ذَٰلِكَ بتَفَهُّمِ معانِيه، فإنَّه لا ينْبُلُ في العلمِ بالغًا الغايةَ منه إلَّا مَنِ ٱرْتَوَى من هاتين السَّابِلَتَينِ أكملَ الارتواءِ وأقوَاهُ.

ومَنْ ظَنَّ أنَّه يَنالُ العلمَ بواحدةٍ من هاتينِ القُوَّتَينِ دُونَ الأُخْرَى فهوَ لَا يعرفُ حقيقةَ العلمِ، ومَنْ لمْ يَسِرْ فيهمَا سَيْرَ أهلِ العلمِ مِنْ ملاحظةِ الحفظِ في زمَنِهِ ووقتِهِ، وملاحظةِ الفهم في زمنِهِ ووقتِهِ أَضَرَّتْ إِحْدَى القُوَّتَيْنِ بِالأُخْرَى.

وَقَدْ ذَكَرَ الوَشَلِيُّ فِي «الثَّنَاءِ الحَسَنِ» عَنْ بَعْضِ شُرَّاحِ «الرَّحَبِيَّة» - وَلَمْ يُسَمِّهِ - أَنَّ مَنْ لَمْ يَرْعَ الحِفْظَ وَالفَهْمَ كَمَا يَنْبَغِي أَضَرَّتْ إِحْدَى القُوَّتَيْنِ بِالأُخْرَى.

وَهٰذَا أَمْرٌ ظاهرٌ في النَّاس؛ فإنَّ مِنَ النَّاس مَنْ يشتغِلُ بالحفظِ في غيرِ أوانِه وزمانِه؛ تقديمًا وتأخيرًا، ٱختيارًا وٱصطفاءً، فيحصلُ له حِفْظٌ كثيرٌ، ويَثْقُل فَهْمُه؛ لأنَّه لم يَقْرِنْهُ بالحال الَّتي ينبغِي أن يكونَ عليهَا منَ الفهمِ.

ويُقابلُه قومٌ آخَرُون يُقَعْقِعُونَ بِشِنْشِنَةِ الفهم فقط، فتجدُهم يُرسِلونَ خيالاتِهم في تَفَهُّم معانِي ما يريدونَ، فيُثقلونَ علَى أذهانِهم؛ لأنَّهم لا يستمدُّون تحقيقَ تلكَ المعانِي من مخزونٍ محفوظٍ، فيقعونَ في صحراءَ بَلْقَع، يَضِيعُونَ فيها في تَيْهٍ.

فمَنْ أراد أن يَتَرَقَّى في العلم وينالَه ويحصلُ له ما ذَكَره جماعةٌ من السَّلف: (العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ)؛ فإنَّه ينبغي أن يُلاحِظ الحفظ والفَهْمَ سَيْرًا فيهِمَا بجادَّةِ أهل العلمِ، ممَّا يُرَقِّيه فيه أهلُ العلمِ العارفُونَ بِهِ، ولن تُبْلَغ الغايةُ إلَّا بالسَّير وَفْقَ هٰذِهِ السَّابِلَةِ، فلا تَتَعَنَّ.



قالَ النَّاظم رحمه اللّهُ:

وَالعِلْـمُ قَـدْ يُرْزَقُـهُ الصَّـغِيرُ   فِي سِـنِّهِ وَيُحْـرَمُ الكَبِـيرُ
فَإِنَّمَـا المَـرْءُ بِأَصْـغَرَيْهِ   لَـيْسَ بِرِجْلَيْـهِ وَلَا يَدَيْـهِ
لِسَـانِهِ وَقَلْبِـهِ المُرَكَّـبْ   فِي صَـدْرِهِ وَذَاكَ خَلْـقٌ عَجَّـبْ

❁ ❁ ❁

قال الشَّارح وفّقه اللّه:

لمَّا كان التَّعلُّم سبيلًا يُنال به العلمُ - كمَا ذَكَر النَّاظم فيمَا سلَفَ -؛ بَيَّن هنَا أنَّ العلمَ لَا يتوقَّف حصولُه على عُمُرٍ دونَ عُمُرٍ، فيُدركُه ٱمرِئٌ فِي سِنٍّ وَلا يُدركه آخَرُ في سِنٍّ أُخْرَى، بلِ الأمرُ كمَا ذَكَر فِي قولِهِ:

وَالعِلْـمُ قَـدْ يُرْزَقُـهُ الصَّـغِيرُ   فِي سِـنِّهِ وَيُحْـرَمُ الكَبِـيرُ

فرُبَّما يُوَفَّق الصَّغير إلى العلم ويُحْرَمه الكبيرُ، بحسَب مَا يتهيَّأُ لهُ من العونِ عليهِ، فيترشَّح للعلمِ حِفْظًا وفَهْمًا مع مبتدإِ عُمُرِهِ، ويحصُل له من الظَّفَرِ بمحفوظٍ واسعٍ ومفهومٍ نافعٍ، فيرجعُ عليه ذَٰلِكَ بحُسْن رزقِهِ فِي العِلْمِ.

وربَّما يقابلُهُ مَنْ هُوَ متقدِّمٌ عليهِ فِي السِّنِّ، لكِنْ لَمْ يُصِبْ من العلم شيئًا؛ لتَرْكِه الاشتغالَ به، فتقدَّم الصَّغيرِ علَى الكبيرِ لاشتغالِ الصَّغيرِ بهِ فِي المبادئِ.

وإذا ٱشتغلَ الكبيرُ بالعلم فإنَّه يُمكنُه أن يُدركَهُ إذا تَجَرَّدَ منَ الشَّواغلِ والعوائقِ والقواطعِ، قَالَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي «كِتَابِ العِلْمِ»: «وتَعَلَّمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِبَارًا» ٱهـ.

فالتَّقدُّمُ فِي السِّنِّ لا يمنَع نَيْلَ العلم حِفْظًا ولا فَهْمًا، وَلكِنَّ أهلَ العلمِ لَهَجُوا بالمبادرة

إِلَى تحصيلِ العلم في مبتدإِ العُمُر؛ لِقِلَّةِ الشَّواغل، وقوَّة الدَّاعِي إلى طَلب العلم في النَّفس.

فمَنْ تـمكَّن من كبار السِّنِّ من تخلِيصِ نفسِهِ منَ القَوَاطِعِ الـمُشغِلَة وَالعَوائقِ المانعةِ من العلم وسَارَ فيه سَيْرًا حسنًا فإنَّه يُدرك منه بُغيتَه.

ومَحَلُّ العِلْمِ من العبد: قَلْبُهُ.

وآلَةُ بيانِ العلمِ: لسانُهُ.

فَالقَلْبُ وِعَاءُ العِلْمِ، وَاللِّسَانُ مِغْرَافٌ يَنْزَعُ منه، ولـهٰذَا قال النَّاظم:

فَإِنَّمَـــا المَـــرْءُ بِأَصْـــغَرَيْهِ لَـــيْسَ بِرِجْلَيْـــهِ وَلَا يَدَيْـــهِ
لِسَـــانِهِ وَقَلْبِـــهِ المُرَكَّـــبْ فِي صَـدْرِهِ وَذَاكَ خَلْـقٌ عَجَّـبْ

وسُمِّيَ القَلبُ واللِّسانُ: (الأَصْغَرَانِ)؛ لِضَآلَةِ حَجْمِهِمَا، وَصِغَرِ قَدْرِهِمَا مِنَ البَدَنِ، فَهُمَا بَضْعَتَانِ صَغِيرَتَانِ مِنْ بَدَنِ الإِنْسَانِ.

وقولُه: (المَــرْءُ بِأَصْــغَرَيْهِ) مَثَلٌ سَيَّارٌ؛ مَعْنَاهُ: أَنَّ الـمَرْءَ يَعْلُو الأُمُورَ وَيَضْبِطُهَا بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ، ذَكَرَهُ الزَّبِيدِيُّ فِي «تَاجِ العَرُوسِ».

وقولُه: (وَذَاكَ خَلْقٌ عَجَّبْ)؛ أيْ: وقوعُ تلكَ الحالِ منَ الإنسانِ خَلْقٌ عَجِيبٌ، فالجُثَّةُ القائمةُ من لحمٍ وبَدَنٍ يَكمُلُ أَمْرُها أو ينقصُ قَدْرُهَا بِالنَّظرِ إلى بَضعتينِ صَغيرتينِ مِنْهَا، وَهُمَا: القَلْبُ واللِّسَانُ، وَهٰذَا تَرْكِيبٌ عَجِيبٌ بَدِيعٌ؛ فَإِنَّ الجَارِي فِي حالِ الخَلْقِ: أن يكونَ الأكبَرُ مُتحكِّمًا في الأصغرِ، وقُلِبَ هٰذَا في خِلْقة أحدِنَا؛ فأصْغَرَاهُ مُتحكِّمَان فيهِ، فإنَّ تمامَ دينِ الإنسانِ وكَمَالَ عقلِهِ وحُسْنَ حالِه يرجعانِ إِلَى قلبِهِ ولسانِه معَ ضَآلَةِ حجْمِهِمَا وَصِغَرِ قَدْرِهِمَا.

وهٰذَا يدلُّ عَلَى عظمة الخالقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ إِذْ جعلَ الإنسانَ على هٰذِهِ الصُّورةِ البديعةِ العجيبةِ الَّتي رُدَّ فيهَا أَمْرُه كلُّه إِلَى قلبِهِ ولسانِهِ.

وتحقيقُ الأمر: أنَّ الـمَرْءَ يُرَدُّ فِي بَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ إِلَى قَلْبِهِ، وفيهِ: حديثُ النُّعْمَانْ بنِ بَشِيرٍ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**».

قَالَ ٱبْنُ تَيْمِيَّة الحَفِيدُ: «القَلْبُ مَلِكُ البَدَنِ، وَالأَعْضَاءُ جُنُودُهُ، فَإِذَا طَابَ المَلِكُ طَابَتْ جُنُودُهُ، وَإِذَا خَبُثَ المَلِكُ خَبُثَتْ جُنُودُهُ».

وإنَّما جُعِل اللِّسان عليه حِجابًا، فَالقَلْبُ مَلِكُ بدنِك، ولسانُكَ حاجِبُه، فهوَ يغْرِفُ منهُ وَيَنْزَع عنه، فإذا طابَ المَلِكُ وكانَ صالحًا فإنَّ الحَاجبَ - الوَزِيرَ دونَهُ - يَكونُ صَالحًا طيِّبًا، وَإِذَا خَبُثَ وفَسُد ظَهَرَ الخُبْثُ والفَسَادُ على اللِّسان وبقيَّةِ الأركانِ.



قالَ النَّاظم رحمه اللّٰهُ:

وَالعِلْـمُ بِـالفَهْمِ وَبِالْمُـذَاكَرَهْ   وَالدَّرْسِ وَالفِكْـرَةِ وَالمُنَـاظَرَهْ

❁ ❁ ❁

قال الشَّارح وفّقه اللّٰه:

ذكر النَّاظِمُ فِي هٰذَا البيتِ خمسةَ مواردَ من الـمواردِ الَّتي تُوصِلُ العلمَ إلى النَّفس، وتُذيقُ القلبَ حلاوتَه:

فَالمَوْرِدُ الأَوَّلُ: الفَهْمُ؛ وَهُوَ: إِدْرَاكُ المَعَانِي المُرَادَة فِي الكَلَامِ.

وَالنَّافِعُ مِنَ الفَهْمِ هُوَ: المُتَلَقَّى عَنِ الرَّاسِخِ فِي العِلْمِ.

فإنَّ مَنْ رَسَخ عِلمُه صارتِ المعانِي الَّتي يُبديها صحيحةً، فَانتَفَعَ بها مُتَلقِّيها، وَقَوِيَتْ مَلَكَةُ فَهْمِهِ، وإذَا كانَ مُزَعْزَعَ القَدَم في العلمِ، غيرَ مُتمكِّنٍ منه بَدَتْ تلكَ المعانِي مُشوَّشةً، فتَلتبِسُ فِي نَفْس المتلَقِّي وتورِثُه عُسْر الفهم.

وَالمَوْرِدُ الثَّانِي: المُذَاكَرَةُ؛ وَهِيَ: مُرَاجعَةُ مُتَلَقِّي العِلْمِ عِلْمَهُ مَعَ آخَرَ، سُمِّيتْ (مُذَاكَرَةً) لِأَنَّهَا مُفَاعَلَةٌ بِالذِّكْر بينَ ٱثْنَيْنِ فَصَاعِدًا، فيجلسُ أحدُهُمَا إلَى الآخرِ ويتَجاذَبَان القَوْلَ مُعِيدَيْنِ مَا سَبَقَ تَلَقِّيهِ عَنْ مُعَلِّمهِمَا.

فاسْمُ (المُذَاكَرَةِ) في كلامِ العرب يقع بين ٱثْنَيْنِ فأكثرَ.

والدَّارِجُ عَلَى ألسنَةِ النَّاسِ ممَّا يسمُّونَهُ (مُذَاكَرَةً) ٱسمهُ: (مُطَالَعَةٌ)؛ فَإنَّ الَّذي ينظرُ في الكتبِ وحدَهُ يُسمَّى مُطَالِعًا، سواءً كان مُتَحفِّظًا أم مُتفهِّمًا، وٱسم (المُذَاكَرَةِ) لا يكونُ إلَّا بين ٱثْنَيْنِ فَصَاعِدًا يتَجاذَبَانِ ذِكْرَ العلم بينهمَا.

وَالنَّافِعُ مِنَ المُذَاكَرَةِ هِيَ: الوَاقِعَةُ مَعَ القَرِينِ الجَادِّ، الطَّامِحِ إِلَى مَعَالِي الأُمُورِ.

وَالـمَوْرِدُ الثَّالِثُ: الدَّرْسُ؛ وَهُوَ: تَكْرَارُ العِلْمِ علَى النَّفْسِ، وَإِعَادَتُهُ عَلَيْهَا، فإنَّ ٱسمَ (الدَّرْسِ) مأخوذٌ من العَوْدِ والتَّكْرَارِ، فإعادةُ العلم بعد حِفْظِه أو بعدَ فَهْمه يُسمَّى (دَرْسًا).

فمَنْ جَلَسَ بَعْدَ الفجرِ فحَفِظَ هٰذِهِ الأبيات حتَّى أحْكَمَهَا، فلمَّا أرسَلَ اللَّيْلُ سِتَارَهُ، وبَزَغَتِ النُّجُومُ، وهَدَأَ صوتُ النَّاسِ؛ قَامَ فأخَذَ يُكرِّر هٰذِهِ الأبيات، فِفعْلُهُ يُسمَّى (دَرْسًا)، وَكَذَا لَوْ كَان مُتعلِّقًا بمَفهومٍ تلقَّاه؛ كَأَنْ يكون قَرَأ ذَٰلِكَ المَحفوظَ عَلَى شَيخٍ بَيَّنَ له معانيه، ثمَّ رجَع إلى دارِه، فَإنَّه إذا أعاد تَذَكُّرَ تلك المعاني الَّتي تلقَّاها وأَمَرَّها على نَفْسِه يُسمَّى هٰذَا (دَرْسًا).

والنَّافِعُ مِنَ الدَّرْسِ: هُوَ الكَائِنُ فِي وَقْتِ النَّشَاطِ وَالقُوَّةِ.

فمَنْ أرادَ أن ينتفعَ بدَرْسِه مُعيدًا له فإنَّه ينبغي أن يتخيَّر أوقاتَ نَشَاطه وقوَّتِهِ.

وَالمَوْرِدُ الرَّابِعُ: الفِكْرَةُ؛ وَهِي: تَحْقِيقُ النَّظَرِ فِي مَا يُبْتَغَى مِنَ العِلْمِ، بِإِمْرَارِهِ عَلَى القَلْبِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وَٱسْتِخْرَاجُ مَا تَحْتَ المَبْنَى مِنَ المَعْنَى.

فإنَّ مَبَانِي الكَلَامِ خَزَائِنُ المَعَانِي؛ فتحقيقُ النَّظَرِ فيهَا وإجالتُه تُسمَّى (فِكْرًا)، بأنْ تَتطلَّب الوصولَ إلَى مقصودٍ تُقلِّب نَظَرك فيه حتَّى تُدرِك معنًى تلتمسُهُ في ما تُطلِق الفِكْرَ فيه.

والنَّافِعُ مِنَ الفِكْرِ فِي العِلْمِ: هُوَ مَا تَحَرَّكَ بِهِ الذِّهْنُ بَعْدَ تَمَامِ الفَهْمِ وَٱكْتِمَالِ آلَةِ العِلْمِ؛ فَالفِكْرُ في العلمِ للوصولِ إلى المعانِي الشَّريفةِ مَحلُّه في ما يُستَقْبَل منْ عُمُر مُتلقِّيه، فلَا يَحسُنُ الهُجُوم عليه في المَبَادِي، أو عند المتوسِّطينَ، أو عندَ المنتهينَ قبلَ ٱمتلائِهِمْ منَ العلمِ، فإنَّ الفِكْرَ في العلمِ لا تَحْصُل منفعتُه إلَّا بعدَ تمَام فَهْم معانِيهِ، فإذا تَمَّ فَهْمُ المَعَانِي، ثمَّ ٱكتملتْ آلة العلمِ من تَلَقِّي فنونِه؛ كانَ فِكْرُ المرءِ فيه حينئذٍ كمَالًا يُورِث كمالًا، وَإن كان قبل ذَٰلِكَ كان خَبالًا يُورِث خَبالًا.

فمُلتمسُ العلمِ لا ينبغِي له أن يُجهِدَ ذِهْنَه بالفِكْرِ في الوصولِ إلى المعانِي قبلَ تمَامِ فَهْمِهِ واْكتمَالِ آلتِهِ، لأَنَّه يُشغِلُ نَفْسَه بمَا يَشُقُّ عليهَا؛ كَمَنْ يحمِل ثِقَلًا لَا يَقدِرُ بَدَنُه عَلَى رَفْعِه، وَربَّمَا أوردَهُ المَهَالِكَ؛ فهو يُجرِي خاطرَهُ مُنقدحًا في أمورٍ لَا يَعي تمامَهَا.

فإنَّ ممَّا يسمعُهُ المرءُ فِي تعليلِ الأَحَاديثِ - مَثَلًا - أشياءَ فكَّر فيهَا المتكلِّمون بها فأرسلُوهَا على عَوَاهِنِهَا قَبْلَ تمام الفهمِ واْكتمال آلةِ العلمِ، فصَارَ تَعليلُهم ضِحْكَةً عِندَ العارفين بالعلمِ، فإنِّي سمعتُ رَجُلًا يُعَلِّل حديثًا فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ لِأُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «**أَنَفِسْتِ؟**» - لَمَّا اْنسَلَّتْ مِنْ فِرَاشِهِ -، فَقَالَ: هٰذَا الحَدِيثُ لَهُ عِلَّةٌ، وَهِيَ أَنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لَمْ تَضَعْ إِحَدَاهُنَّ مَوْلُودًا، وَالنِّفَاسُ دَمٌ يَكُونُ بَعْدَ وِلَادَةٍ.

وَهٰذَا المَعْنَى الَّذِي عَلَّلَ بِهِ مَعْنًى سَاقِطٌ؛ لِأَنَّ أَصْلَ (النِّفَاسِ): حُصُولُ التَّنْفِيسِ، وَهُوَ لِلْمَرْأَةِ بِدَمٍ، فَيُسَمَّى الحَيْضُ أَيْضًا (نِفَاسًا)، وَهُوَ الَّذِي أَرَادَهُ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ: «**أَنَفِسْتِ؟**».

وَهٰذَا الأمرُ الَّذي ذَكَرتُ خطورتَه صارَ شائعًا في النَّاس فِي ما فُتِنُوا بهِ من دَعْوَى سهولَةِ الوُصُولِ إلى المعلومةِ؛ فظنُّوا أَنَّ سهولَةَ الوُصُولِ إلى المعلومةِ تُورِثُهُم قُدرةً على نُفُوذِ أفكارِهم في معانِي العلم، وأنَّهم يُدركونَ من حقائِقِه أشياءَ تجْري بهَا خَوَاطِرُهُمْ؛ كالمسموعِ اليومَ في كثيرٍ ممَّا يُنْسَبُ إلَى تَدَبُّرِ القرآن، فإنَّه محضُ جَرَيَان الخَوَاطِرِ، وربَّما اْشتَمَلَ عَلَى مَعَانٍ فَاسِدَةٍ فِي الشَّرِيعةِ.

والمَقْصُودُ: أنَّ مُرِيدَ النَّجاة عند الله، الرَّاغبَ في حصولِ كمالِ العلم؛ ينبغِي أن يعرفَ أنَّ الفِكْرَ فِي العلم مَرتبةٌ تُدرَكُ بَعْدَ تَمَامِ الفَهْمِ وَاْكْتِمَالِ آلَةِ العِلْمِ.

وَالمَوْرِدُ الخَامِسُ: المُنَاظَرَةُ؛ وَهِيَ: البَحْثُ فِي العِلْمِ مَعَ غَيْرِهِ؛ لِنُصْرَةِ قَوْلٍ دُونَ آخَرَ، وَإِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِ.

وَالنَّافِعُ مِنَ المُنَاظَرَةِ: مَا كَانَ مَعَ ذِي عِلْمٍ لِإِرَادَةِ الحَقِّ.

فَالمُنَاظَرَةُ النَّافِعَةُ تَجْمَعُ وَصْفَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: وُقُوعُهَا بَيْنَ مُتَّصِفَيْنِ بِالعِلْمِ الكَامِلِ؛ إِمَّا فِي نَفْسَيْهِمَا، وَإِمَّا فِي تِلْكَ المَسْأَلَةِ بِعَيْنِهَا.

وَالآخَرُ: أَنْ يَكُونَ مُرَادُ كُلٍّ مِنْهُمَا الوُصُولُ إِلَى الحَقِّ.



قالَ النَّاظم رحمه اللهُ:

فَــرُبَّ إِنْسَــانٍ يَنَــالُ الحِفْظَــا ... ويُــورِدُ النَّــصَّ وَيَحْـكِي اللَّفْظَـا
وَمَــا لَهُ فِي غَـــيْرِهِ نَصِـــيبُ ... مِمَّــا حَــوَاهُ العَــالِمُ الأَدِيــبُ
وَرُبَّ ذِي حِرْصٍ شَـدِيدِ الحُبِّ ... لِلْعِلْـمِ وَالذِّكْـرِ بَلِيـدِ القَلْـبِ
مُعَجَّــزٍ فِي الحِفْــظِ وَالرِّوَايَــهْ ... لَيْسَــتْ لَهُ عَمَّــنْ رَوَى حِكَايَــهْ
وَآخَــرٌ يُعْطَــى بِــلَا ٱجْتِهَــادِ ... حِفْظًا لِمَـا قَـدْ جَـاءِ فِي الإِسْـنَادِ
يُفِيــدُهُ بِالقَلْــبِ لَا بِنَــاظِرِهْ ... لَــيْسَ بِمُضْــطَرٍّ إِلَى قَمَــاطِرِهْ

❁ ❁ ❁

قال الشَّارح وفّقه اللهُ:

ذكر النَّاظِمُ في هٰذِهِ الأبياتِ أنَّ النَّاس يتفاوتُونَ في حظوظِهِمْ من الحفظِ والفَهْمِ الَّذي ينالونَ بِهِ العلمَ.

فتَجِدُ فيهمْ مَنْ تكون له أهليَّةٌ في الفهم وقُدرةٌ عليه، فهو واعيةٌ دَرَّاكٌ للمعانِي.

وتجد منهمْ مَنْ يتقَاصَرُ عن هٰذِهِ الرُّتبَةِ من الفهمِ، فَمَا لَهُ فيه كبيرُ نصيبٍ، وَإن كانَ له حظٌّ من الحفظِ.

وأشار النَّاظم إلى الثَّاني منهمَا بقوله:

فَــرُبَّ إِنْسَــانٍ يَنَــالُ الحِفْظَــا ... ويُــورِدُ النَّــصَّ وَيَحْـكِي اللَّفْظَـا
وَمَــا لَهُ فِي غَـــيْرِهِ نَصِـــيبُ ... مِمَّــا حَــوَاهُ العَــالِمُ الأَدِيــبُ

فالمذكورُ في هٰذَيْنِ البيتينِ بالنِّسبة إلى قوَّة الفهم هو ضعيفٌ لا يُعَدُّ من أربابِها.

وعُرِف مُقابِله بحالِه؛ فإنَّه إذا كانَ في النَّاس مَنْ يضْعُف فَهْمُه، فمُقابِله منهمْ: مَنْ

يقوى فَهْمُه.

وتجدُ فيهم أيضًا بالنِّسبة للحفظِ مَنْ يكونُ ضعيفَ الحفظِ مع محبَّتِه العلمَ ورغبتِه فيه.

وتجدُ منهمْ مَنْ هو قَوِيُّ الحفظِ، مُتمكِّنٌ منه، سهلٌ عليهِ.

فالنَّاس متفاوتون في الحفظِ والفهمِ على درجاتٍ ومَرَاتبَ مُتباينَةٍ.

وأشار النَّاظم إلى مَرَاتبِ النَّاس في الحفظِ في قولِه:

وَرُبَّ ذِي حِرْصٍ شَـدِيدِ الحُـبِّ ... لِلْعِلْـمِ وَالذِّكْـرِ بَلِيـدِ القَلْـبِ
مُعَجَّــزٍ فِي الحِفْــظِ وَالرِّوَايَــهْ ... لَيْسَــتْ لَهُ عَمَّـنْ رَوَى حِكَايَـهْ
وَآخَــرٌ يُعْطَــى بِــلَا ٱجْتِهَــادِ ... حِفْظًا لِمَـا قَـدْ جَـاءِ فِي الإِسْـنَادِ
يُفِيــدُهُ بِالقَلْــبِ لَا بِنَــاظِرِهْ ... لَــيْسَ بِمُضْــطَرٍّ إِلَى قِمَــاطِرِهْ

فالأوَّل: كَليلُ الحفظِ ضَعيفُه.

والثَّاني: قَوِيُّ الحفظِ حتَّى تَتَمكَّن الـمحفوظاتُ في قلبِه دونَ كبيرِ ٱجتهادٍ منه؛ ومنهُ: حالُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الـمُبَارَكِ؛ فَإِنَّهُ سُئِلَ: كَيْفَ تَحْفَظُ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ؟، فَقَالَ: «إِنَّمَا هُوَ إِذَا ٱشْتَهَيْتُ شَيْئًا حَفِظْتُهُ»؛ أيْ: إذا وُجِد في قلبِي محبَّةٌ ورغبةٌ له وَجَدَ طريقًا إلى قلبِي، فتَمَكَّن منه ورَسَخ فيه، فصار عِلمُه حاضِرًا بقلبِه، فهو لا يحتاجُ إلى النَّظرِ في الكتبِ الـمُشارِ إليها بقولِه: (لَـيْسَ بِمُضْـطَرٍّ إِلَى قِمَـاطِرِهْ)؛ **فَالقَمَاطِرُ**: جَمْعُ قِمَطْرٍ، وَهُوَ: وِعَاءٌ تُحْفَظُ فِيهِ الكُتُبُ، بِمَنْزِلَةِ الحَقِيبَةِ فِي وَقْتِنَا.

فالحافظُ المتمكِّن غيرُ مُفْتَقِرٍ إلى الكتُبِ الموضوعَةِ في القَمَاطِرِ.

وكان الخليل بنْ أحمدَ يُنشِد بيتًا سَيَّارًا:

وَلَيْسَ عِلْمًا مَا حَوَى القِمَطْرُ ... مَـا العِلْـمُ إِلَّا مَـا حَـوَاهُ الصَّـدْرُ



قالَ النَّاظم رحمه اللّٰه:

فَالْتَمِسِ العِلْمَ وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبْ وَالعِلْـمُ لَا يَحْصُـلُ إِلَّا بِـالأَدَبْ

❀ ❀ ❀

قال الشَّارح وفّقه اللّٰه:

لمَّا بَيَّن النَّاظِمُ أنَّ العلم بالتَّعلُّمِ، ثمَّ أتبعَه بذِكْر خمسةِ مواردَ يُـحَصَّل بها العلمُ؛ أرشدَ إلى ما تَنبَغِي ملاحظتُه في طَلَبِ العلم، فقَالَ: (فَالْتَمِسِ العِلْمَ وَأَجْمِـلْ فِي الطَّلَـبْ)؛ أيْ: ٱبتغِ العلمَ وَٱحْرِص علَى تحصيلِه، سالكًا ما يجمُلُ منَ الطُّرق الموصِلَةِ إليهِ.

فقوله: (وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبْ)؛ معنَاه: ٱسْلُكْ فيه طريقًا جميلًا حسنًا، بأنْ تَأْتِيَه من وجههِ الَّذي يُؤْخَذ منهُ.

وقد تقدَّم فِي «تَعْظِيمِ العِلْمِ» وَ«خُلَاصَتِهِ» وَغيرِهِمَا بيانُ كثيرٍ منَ القولِ الـمتعلِّقِ بمَا يَجْمُل فِي طريقِ أَخْذ العلم، فمَنْ سلَكَها كَانَ أَخْذُه جَميلًا، ومَنْ عَدَلَ عنهَا إلى غيرهَا أَضَرَّ بنفسِهِ في العلمِ لغَلَطِهِ فِي سلوك طريقِه.

ثمَّ ذَكَر أنَّ من مفاتيحِ حِيازةِ العلمِ: سلوكَ الأدَبِ، وٱلتزامَ مُقتَضَاه في النَّفْس والدَّرس ومعَ الشَّيخ والزَّميل، فقال: (وَالعِلْمُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِـالأَدَبْ)، وَهوَ فِي مَعنى قولِ يُوسُفَ ٱبْنِ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بِالأَدَبِ تَفْهَـمُ العِلْـمَ». رَوَاهُ الخَطِيبُ البَغْدَادِيُّ فِي «ٱقْتِضَاءِ العِلْـمِ العَمَلَ».

وَالجُمْلَةُ المَذْكُورَةُ لَهَا مُتَعَلَّقَانِ:

أَحَدُهُمَا: الهِبَةُ الإِلٰهِيَّةُ.

وَالآخَرُ: المِنْحَةُ البَشَرِيَّةُ.

فَأَمَّا **الهِبَةُ الإِلٰهِيَّةُ:** فإنَّ اللهَ يَهَبُ العِلْمَ لِمَنْ كَانَ مُتَأَدِّبًا، فَإِنَّ العِلْمَ ميرَاثُ النُّبُوَّةِ، وَإِنَّ اللهَ لَا يَجْعَلُ مِنْ أَنْوَارِ النُّبُوَّةِ فِي قُلُوبِ قَلِيلِي الأَدَبِ، ولو قُدِّرَ وجودُ شيءٍ من العلمِ عندَ قليلِ أدبٍ فهوَ ليسَ العلمَ الممدوحَ شرعًا.

فالعلمُ الممدوحُ شرعًا: هو النافع، المُقَرِّب إلى اللهِ، الحاملُ للعبد على التزام شريعتِهِ.

وأمَّا المِنْحَةُ البَشَرِيَّةُ: فَإِنَّ المُعَلِّمِينَ يَتَعَاهَدُونَ المُتَأَدِّبِينَ؛ فَهُوَ يَبْذُلُ عِلْمَهُ لِلْمُؤَدَّبِ، وَيَمْنَعُ قَلِيلَ الأَدَبِ مِنْهُ، فَإِنَّ العَاقل من المُعَلِّمِينَ يعلم أنَّ العلمَ خزانَةٌ، وأنَّه أمينٌ عليهَا، فمِنْ صِدْقِ الأمانةِ أنْ يتحرَّى مَنْ له حقٌّ فِي تِلْكَ الخِزَانَةِ، ولا حقَّ في العلم إلَّا لمَنْ تأدَّب بآدابه، فإنَّ الَّذين لا يتأدَّبون بآدابِ العلمِ معَ اللهِ، ومعَ رسولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع أئمَّة أهلِ العلمِ، ومع شيوخِهِم، ومعَ أقرانِهم، ومعَ مجالسِ العلمِ وأهلِه؛ ليسَ لهم حقٌّ في تلكَ الخزانةِ؛ فإنَّ تلكَ الخزانَةَ فيها العلمُ الموروثُ عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأمينُ الصَّادقُ لا يجعلُ تلكَ الجواهِرَ واللَّآلِئَ إلَّا عندَ مَنْ لَهُ حقٌّ فيها.

وأولئكَ الَّذين لهم حقٌّ هم الملتزمونَ بشروطِهَا من الآدابِ الشَّرعيَّةِ، والأحكام المَرْعِيَّةِ، فإذا وُجِدَت فيهمْ كَانَ حقيقًا بحامِلِ العلمِ أن يبذلَهُ لهُم، وإذَا سُلِبَتْ منهُم كانَ حقيقًا بصاحبِ العلم أن يمنَعَه منهُم.

وَاعْتَبِرِ هٰذَا فِي أخبارٍ مِن أحوالِ مَنْ مضَى؛ فإِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَٰنِ بْنَ أَبِي حَاتِمٍ وَأَصْحَابَهُ لَـمَّا قَصَدُوا مِصْرَ لِسَمَاعِ الحَدِيثِ عَلَى الشُّيُوخِ، وَضَاقَ بِهِمْ زَمَنُهُمْ عَنِ السَّمَاعِ عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْلَمَةَ بْنِ قَعْنَبٍ القَعْنَبِيِّ؛ كَانَ يَأْتِيهِمْ بَعْدَ العِشَاءِ، فَيَقْرَأُ عَلَيْهِمْ كِتَابَ «المُوَطَّأِ» الَّذِي يَرْوِيهِ عَنِ الإِمَامِ مَالِكٍ؛ لِأَنَّهُ رَآهُمْ أَهْلَ أَدَبٍ، يَتَحَرَّوْنَ العِلْمَ وَيَلْتَزِمُونَ شُرُوطَهُ، فَحَمَلَ عَلَى نَفْسِهِ فِي حَمْلِ العِلْمِ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَهُ وَهُمْ مِنْ أَهْلِهِ.

وَفِي أَخْبَارِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «إِنِّي لَأَحْرِمُ الرَّجُلَ الفَائِدَةَ لِمَا أَرَى مِنْ حَالِ جَلِيسِهِ»، فَهو يلاحظ أنَّ ملتمسَ العلم له صُحبةٌ لا تصلُحُ فيهِ فيمنعُه العلمَ؛ لأنَّه يخافُ

أن تُفسدَه تلكَ الصُّحبةُ فيُجعَل العلمُ عندَ مَنْ لَا يستحقُّهُ.



قالَ النَّاظم رحمه اللهُ:

الأَدَبُ النَّافِعُ حُسْنُ الصَّمْتِ ... فَفِي كَثِيرِ القَوْلِ بَعْضُ المَقْتِ
فَكُنْ لِحُسْنِ الصَّمْتِ مَا حَيِيتَا ... مُقَارِنًا تُحْمَدُ مَا بَقِيتَا

❀ ❀ ❀

قال الشَّارح وفّقه الله:

لمَّا قرَّرَ النَّاظِمُ أنَّ العلم لا يحصلُ إلَّا بالأدبِ شَرَعَ يذكُرُ أنواعًا منَ الأدبِ ووجوهًا منه، مُقَدِّمًا (حُسْنَ الصَّمْتِ)؛ أيْ: الصَّمتَ الحَسَنَ بالإمساكِ عمَّا لا يُحتَاجُ إليهِ من الكلام.

ويتأكَّد الصَّمت إذا تحقَّقت مَضَرَّةُ الكلامِ، أو لم تتبيَّنْ منفعتُه ولا مَضَرَّتُه.

فَالكَلَامُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

أَحَدُهَا: كَلَامٌ بَيِّنُ المَنْفَعَةِ.

وَثَانِيهَا: كَلَامٌ بَيِّنُ المَضَرَّةِ.

وَثَالِثُهَا: كَلَامٌ لَمْ يَتَبَيَّنْ نَفْعُهُ مِنْ ضَرَرِهِ.

والعبدُ مأمورٌ في القسميْنِ الأخيرينِ بالصَّمتِ؛ لِمَا في «الصَّحيحينِ» من حديث أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»؛ فالكلامُ المأمورُ به هو مَا كانَ خيرًا - أي بَيِّنَ المنفعة -، وَمَا عَدَاه - ممَّا يكون بَيِّنَ المضرَّةِ، أو لم تتحقَّق منفعتُه من مضرَّتِهِ - فَإِنَّ العَبْدَ مأمورٌ بالإمساكِ عنه وأن يَخْزِنَ لسانَه ويحفظه، مُمتثلًا ما أرشدَ إليه النَّاظم بقوله:

فَكُنْ لِحُسْنِ الصَّمْتِ مَا حَيِيتَا ... مُقَارِنًا تُحْمَدُ مَا بَقِيتَا

أيْ: كُن خازنًا لِلَسَانك، حافظًا له، مُمسِكًا عمَّا لا خيرَ فيهِ من الكلَامِ، فإنَّك تَحْمدُ عاقبةَ ذَٰلِكَ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ، ويبقَى ذِكْرُكَ بِالخيرِ في الحياةِ وفِي المَمَاتِ مَا بقيَ خَبرُكَ.

وَهٰذَا الأمْرُ هو منْ أكثَرِ مواردِ العَطَبِ الَّتِي تَفسُدُ بهَا أحوالَ الخلقِ إذا أرسلُوا أَلسِنَتُهُم فِي ما لا ينفعُهُم، أوْ في ما هو بَيِّنُ الضَّرَرِ، أو ممَّا لا يَتَبيَّنُ نَفْعُه منْ ضَررِه، فإنَّه يرجِع هٰذَا عَليهم بفسادِ قلوبهم.

وقد ذكَرَ ٱبنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في غيرِ كتابٍ أبوابًا من مُفسِدات القلوبِ، فَلَهَج بواحدٍ منهَا وَهُوَ: (كَثرة الكلَام)، فإنَّ مَنْ كَثُرَ كلامُه كَثُرَ خطؤُه فوقَعَ فِيما يضرُّ، أو وَقَعَ فيما لا يتبيَّن منفعتُه من ضرَرِه، فيرجعُ ذَٰلِكَ عليْهِ بفسَادِ قلبِهِ.

وحَبْسُ اللِّسانِ وخَزْنُه من الرِّياضَاتِ النَّافِعَةِ فِي تهذيبِ النَّفْسِ وَإِصْلَاح الأخلاقِ، فينبغي أن يُعَوِّد أحدُنَا نَفْسَه خَزْنَ لسانِه بأن يتقلَّلَ من الكلَامِ، وإذَا جَلَسَ في موضعٍ فيهِ غيرُه مِمَّنْ هو أكبرُ منه أمسَكَ ولم يتكلَّمْ، وإن كانَ يُشَارُ إليهِ بالعلمِ أكثرَ منهُ، ممَّنْ هو في أقرانِه، فإنَّ رعَايةَ هٰذَا ممَّا ينتَفِع بِهِ العبدُ في صلَاحِ قلبِهِ وحُسْنِ دينِه.

وإذا كَثُرَ هَذْرُ المرْءِ وجَرَيَانُ لِسَانِهِ بين النَّاس وقعَ في أشياءَ تُفسِدُ دينَه ودنيَاهُ.

وفِي أَخْبارِ مُوَرِّقٍ العِجْلِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «جَاهَدْتُ نَفْسِي عَشْرَ سِنِينَ فِي تَعَلُّمِ الصَّمْتِ» ٱهـ.

ووجْهُ المُجَاهَدَةِ: أنَّهُ توجدُ عندَه شَهْوَةُ الكَلَامِ فَيَحْبسُ لسانَه.

فإذا أردتَ أن ترتَاضَ رياضَة حِفْظ اللِّسان فاعقلْ هٰذَا المعنى، فإذَا ٱشتاقت نفسُكَ للكلامِ، وٱرتفعتْ إليكَ الأبصارُ وأشارتْ إليكَ الأصابعُ فأَلْجِمْ لسَانَكَ مَا ٱستطعتَ، إمَّا بالإمساكِ عنِ الكلامِ تارةً، أو بالتَّقلُّلِ منه تارةً أخرَى، فإذا أُلْجِئْتَ إِلَى الحَديث فأَقِلَّ الكلامَ، فإنَّ قِلَّة الكَلَام يكثُرُ بهَا دينُ المرء وعقله، كمَا أنَّ كثرةَ الكلَامِ يَضْعفُ بها دينُ المرء وعقلُه، وَٱعْتَبِر هٰذَا في أحوالِ النَّاس تجدْ صِدْقَهُ.

قالَ النَّاظم رحمه اللهُ:

وَإِنْ بَـدَتْ بَـيْنَ أُنَـاسٍ مَسْـأَلَهْ   مَعْرُوفَـةٌ فِي العِلْـمِ أَوْ مُفْتَعَلَـهْ
فَلَا تَكُـنْ إِلَى الجَوَابِ سَـابِقَا   حَـتَّى تَـرَى غَـيْرَكَ فِيـهِ نَاطِقَـا
فَكَمْ رَأَيْتُ مِنْ عَجُـولٍ سَـابِقِ   مِـنْ غَـيْرِ فَهْـمٍ بِالخَطَـاءِ نَـاطِقِ
أَزْرَى بِـهِ ذَلِـكَ فِي المَجَـالِسِ   بَـيْنَ ذَوِي الأَلْبَـابِ وَالتَّنَـافُسِ
الصَّمْتُ فَاعْلَمْ بِكَ حَقًّـا أَزْيَـنُ   إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ عِلْـمٌ مُـتْقَنُ

قال الشَّارح وفّقه الله:

ذَكَرَ النَّاظِمُ أنَّ **من مواردِ الصَّمتِ الحَسَنِ**: الإمساكَ عن الكلامِ فِيمَا يجري ذِكْرُه من مسائلِ العلمِ، ممَّا شُهِرَ منهُ في المسائلِ المقرَّرَةِ الحاصِلَةِ، أو في المسائلِ المتجدِّدةِ النَّازلَةِ.

فإنَّ الصَّمتَ الحَسَنَ: أن يُمسكَ المرءُ عن الجوابِ فيه حتَّى يرى غيرَه ممَّنْ هُم أكملُ عِلمًا، وأكبرُ سِنًّا، وأتمُّ عَقْلًا قد تكلَّموا فيه، فيتكلَّمُ حينئذٍ بمثلِ كَلَامِهِم، ويُحابي مقالَهُم، ويبني على أصولِهِم، ويُوَسِّع النَّظر في ما قرَّرُوهُ.

فمِنْ حُسن صمْتِ أحدِنا: ألَّا يزاحم أهلَ العلمِ القائمينَ بِهِ في ما هُمْ به أَوْلَى.

وإذا أرادَ أن يتكلَّمَ لم يتقدَّمْ بين أيديهم، فإذَا تكلَّمُوا وكَانَ قَدْ زَوَّرَ في نفسِه أن يتكلَّمَ بمثلِ كلَامِهِمْ تكلَّمَ حِينئذٍ بعدَ كَلَامهِمْ، وإنْ زَوَّرَ في نفسِه خلافَ كلامِهم أمسَكَ حينئذٍ عن الكلامِ؛ فإنَّه خيرٌ لَهُ في دينِه وعقلِه.

فلو قُدِّرَ أنَّ أَمْرًا منَ الأمورِ جَرَى بين النَّاس فَالْزَمِ الصَّمتَ الحَسَنَ؛ وإن كانَ النَّاسُ ينتظرونَ منك كلمةً، فإذَا تَقَدَّمَ بينَ يديْكَ أَحَدٌ فَتَكَلَّمَ واُحتِيجَ إلى كلامِكَ - نُصْرةً للحقِّ وتقويةً لهُ وكنتَ تريدُ الكلامَ بمثلِ ما تكلَّم به - فتكلَّم بعدَهُ، وإن عَرَضَ لكَ من المعَانِي مَا تَرَى به أنَّ الرَّاجح عندكَ هو خلافُ ما قَرَّره وكانَ هو منَ المَأْمُونينَ في العلمِ، المنظورِ إليهِمْ عندَ الخَلْق فلا تُزاحِمْه، وَالْزَمْ ما عندَكَ من العلمِ، حتَّى إذا اُحتيجَ إليكَ فَحِينئذٍ قُمْ في هٰذَا المقَامِ.

فإنَّ مَنْ رَعَى هٰذَا الأدَبَ منَ العلمِ في نَفْسِه حَفِظَ دينَه وعقلَه، ومَنْ زَاحَم أَهْلَ العلمِ أَزْرَى على دينِه وعقلِه.

وَذكَر النَّاظِمُ منْ مَزَالقِ العَجَلَة في العلمِ والمسابقَةِ بالقولِ فيه الوقوعَ في الخطإِ الَّذي يُزرِي بصاحبِه عندَ المتنَافِسِينَ في معالِي الأمورِ، فإنَّ المُسارعَةَ والمُسابقَةَ إلى القولِ تَجُرُّ إِلَى الوقوعِ فِي الخطإِ، فيكونُ ذَٰلِكَ رَزِيَّةً تعيبُ المتكلِّم بهَا.

وإذا كانتِ الحالُ كذَلكَ فالأمرُ النَّافع سلوكُه هو المذكورُ في قولِ المصنِّف:

الصَّمْتُ فَاعْلمْ بِكَ حَقًّا أَزْيَنُ   إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ عِلْمٌ مُتْقَنُ

فالصَّمتُ عندَ بُدُوِّ القولِ في مسائِلِ العلمِ أَزْيَنُ بأهلِهِ إن لم يكنْ عندَ المتكلِّمِ علمٌ مُتقَنٌ - أيْ: علمٌ رَاسِخٌ.



قالَ النَّاظم رحمه اللهُ:

وَقُـلْ إِذَا أَعْيَـاكَ ذَاكَ الأَمْـرُ مَـا لِي بِمَـا تَسْـأَلُ عَنْـهُ خُـبْرُ
فَذَاكَ شَطْرُ العِلْمِ عِنْـدَ العُلَمَـا كَذَاكَ مَا زَالَـتْ تَقُـولُ الحُكَمَـا

قال الشَّارح وفّقه اللهُ:

ذكر النَّاظِمُ الجوابَ النَّافعَ فِي المسائلِ الَّتي يَعْزُبُ عِلم أحدِنَا عنهَا، وَهُوَ قولُ: (لَا أَدْرِي)، المُشَارِ إليه بقولِه: (مَا لِي بِمَـا تَسْـأَلُ عَنْـهُ خُـبْرُ)؛ فإذا سُئِلَ المرءُ عن شيءٍ لا يعلمُه كانَ الجوابُ النَّافعُ هو أنْ يصدَعَ بقولِ: (لَا أَدْرِي).

ولِجلَالَةِ هٰذِهِ الكلمةِ صارتْ نِصْفَ العلمِ، كَما قَالَ:

فَذَاكَ شَطْرُ العِلْمِ عِنْـدَ العُلَمَـا كَذَاكَ مَا زَالَـتْ تَقُـولُ الحُكَمَـا

فمِنَ الشَّائِعِ قولُهُمْ: «(لَا أَدْرِي) نِصْفُ العِلْمِ»، وأقدمُ مَنْ أُثِرَت عنهُ هٰذِهِ الكَلِمَةُ هُوَ عَامِرُ بْنُ شَرَاحِيلَ الشَّعبِيُّ، أَحَدُ التَّابِعِينَ. رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ وَغَيْرُهُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

نَعَمْ؛ وقعَ في كلَامِ أَبِي عُمَرَ ٱبْنِ عَبْدِ البَرِّ فِي «جَامِعِ بَيَانِ العِلْمِ وَفَضْلِهِ» وَفِي «الانْتِقَاءِ» أَنَّهُ قَالَ: (وَصَحَّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ قَالَ: «(لَا أَدْرِي) نِصْفُ العِلْمِ»)، وَهٰذِهِ الكلمةُ لَمْ تُوجَدْ مَروِيَّةً عن أَبِي الدَّرْدَاءِ فِي مَا فِي أَيْدِينَا منَ التَّآليف، فأخشى أن يكونَ وَهمًا.

فإنْ صَحَّ أنَّهَا رُوِيَتْ عنه فأبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أقدَمُ من الشَّعبِيِّ، فهو صحابيٌّ وَالشَّعبيُّ تابعيٌّ، لكِنَّ المرويَّ بإسنادِهِ في الكتبِ الَّتي ٱتَّصلتْ بنَا هوَ مرويٌّ عن الشَّعبِيِّ عند الدَّارِمِيِّ وَغَيْرُهُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَوَجْهُ كونِهَا نصفَ العلمِ: أنَّ العلمَ مقسومٌ بينَ (أَدْرِي) وَ(لَا أَدْرِي)؛ فَأَحدُهما نصفُ

الآخر، ذَكَرَه يَحْيَى بنُ آدَمَ فِي مَا رَوَاهُ عَنْهُ ٱبْنُ نَصْرٍ فِي «تَعْظِيمِ قَدْرِ الصَّلَاةِ».

فالعلمُ بينَ شيءٍ يُدرَى وشيءٍ لا يُدرَى، فالَّذي يُدرَى يَتكلَّم به دارِيهِ بمَا يعرفُه، والَّذي لا يُدرَى يُمسِكُ عنهُ المسْئُولُ فيقول: (لَا أَدْرِي).

ومِنْ لَطِيفِ العلْمِ: أَنَّ سَعِيدَ بْنَ عَبْدِ العَزِيزِ - أَحَدِ عُلَمَاءِ أَتْبَاعِ التَّابِعِينَ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ - كَانَ يَقُولُ: «لَا أَدْرِي لِمَ (لَا أَدْرِي) نِصْفُ العِلْمِ». رَوَاهُ عَنْهُ أَبُو زُرْعَةَ الدِّمَشْقِيُّ فِي «تَارِيخِهِ».

وَكَشْفُ مَا غَمُض عليهِ: هوَ المعنى المتقدِّم الَّذي ذكره يحيى بنُ آدمَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالى.

وقدْ صَارَ هٰذَا الأصلُ - (لَا أَدْرِي) - أَصْلًا راسخًا في العلمِ عندَ أهلِه؛ أنَّ مَنْ سُئِلَ عن شيءٍ منهُ لم يعلمْه فإنَّ الوصيَّة النَّافِعَةَ فِي حَقِّه أن يلزمَ قَوْلَ (لَا أَدْرِي)، حتَّى صارَ أهلُ العلمِ والحِكمةِ يُوصي بعضُهم بعضًا بلزومِ هٰذِهِ الكلمةِ.

وقد أشرتُ إلى هٰذَا المعنَى في أبيَاتٍ؛ قلتُ فيها:

وَقَوْلُ (لَا أَعْلَمُ) عِنْدَ العُقَلَا ... عُدَّ فِي العِلْمِ ونِصْفًا جُعِلَا
وفَقْدُهَا مِنَ اللِّسَانِ عَابُوا ... مَقَاتِلُ المَرْءِ بِهِ تُصَابُ
وَيَنْبَغِي لِعَالِمٍ أَنْ يُورِثَا ... أَصْحَابَهُ مَقَالَهَا مَا حَدَّثَا
لأَنَّهَا رَافِعَةٌ وَكَمْ قَضَى ... بِحُكْمِهَا مِنَ الأَنَامِ مُرْتَضَى
وَغَيْرُهُ أَوْلَى بِهَا وَأَجْدَرُ ... وَمَنْ يُضِيعُ رُشْدَهُ لا يُنْصَرُ
وَآنِفٌ مِنْ قَوْلِهَا رَقِيعُ ... وَدِينُهُ فِي نَفْسِهِ وَضِيعُ
فَالْهَجْ بِهَا هُدِيتَ مَا ٱسْتَطَعْتَ ... وَٱلْزَمْ لَهَا فَنِعْمَ مَا ٱتَّخَذْتَ



قالَ النَّاظم رحمه اللهُ:

إِيَّاكَ وَالعُجْـبَ بِفَضْـلِ رَأْيِـكَـا ... وَٱحْذَرْ جَوَابَ القَوْلِ مِنْ خِطَابِكَا

كَمْ مِنْ جَوَابٍ أَعْقَبَ النَّدَامَهْ ... فَـاغْتَنِمِ الصَّـمْتَ مَـعَ السَّـلَامَهْ

قال الشَّارح وفّقه الله:

حَذَّر النَّاظِمُ في هٰذَيْنِ البَيْتَيْنِ من بَلِيَّتَيْن تكتنفَانِ المتكلِّم في العلمِ:

فالبَلِيَّةُ الأُولَى: مُداخَلَةُ العُجْبِ النَّفْسَ، وَتَسَلُّلُهُ إليهَا، فيَرَى الـمُتَكَلِّمُ في العلـمْ لنَفسِه عَلَى غيرِه فَضْلًا، ثمَّ يطلبُ لها قَدْرًا ووَصْلًا.

والعُجْبُ هُوَ: النَّظَرُ إِلَى النَّفْسِ بِعَيْنِ الإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيم.

فتجد مِن النَّاس مَنْ ينتسبُ إلى العلـمِ ويُعَدُّ من أهلِهِ وتعترِيـهِ هٰذِهِ البليَّةُ، فيُعجَب بنفسِه، ناظرًا إليها بِعَيْنِ الإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيم، فهوَ يرى أنَّ له من الكمالِ ما ليسَ لغيرِه، وأنَّ عندَه منَ الفضْلِ تَحْصيلًا وبيانًا مَا ليسَ عندَ سِوَاهُ، فيَزْهُو بنفسِه علَى الخَلْقِ، وَهي منْ أعْظَمِ الغَوَائِل الـمُفسِدةِ للمرءِ في علمٍ أو غيرِه؛ لأنَّ العبدَ مأمورٌ أن ينظرَ إلى نفسِه بعين النَّقص، مُجتهدًا في القيام بحقِّ الله.

ومنه: حالُـه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قيامِـه اللَّيـلَ حتَّـى تتفطَّـر قـدمَاهُ، فتقـول لـه عائشـةُ: يَـا رَسُولَ اللهِ؛ إِنَّ اللهَ غَفَرَ لَكَ مَا تقدَّم من ذنبِكَ ومَا تأخَّر!، فيقول: «**يَا عَائِشَةُ؛ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»؛ فهـو لا يـرى أنَّ مـا لـه مـن حُسْـنِ عبـادةِ ربِّه شيئًا، وأنَّ الله حقيقٌ بـدوام شُكْرِه، وأنَّه مهما أتى من عبادةِ الله وتعظيمِه فإنَّ حقَّ الله أعظمُ.

فالـمرءُ مأمورٌ أن ينظرَ إلى نَفسِه بعينِ الإزراءِ والعيبِ، وأن يقمَعَ طُغيانَ العُجبِ منها،

فإنَّه إذا ٱستولَى علَى قلبِ العبد أفسدَه.

فالمرءُ إذا أعجبتْه نَفْسُه في عبادةٍ أو علمٍ أو غيرهِمَا عَلِقَ بقلبه مَنْجَنِيقٌ ربَّما جَرَّه إلى مهاوِي الرَّدَى، وَلَا سبيلَ إلى الخَلَاص منه إلَّا بملاحظة أنَّ النِّعْمَةَ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا لَمْ تَكْتَسِبْهَا بِقِوَاكَ وَلَكِنَّ اللهَ هَدَاكَ، فإذَا أعجبَك أنَّك جالسٌ في حِلَق العلم، معدودٌ في طُلَّابه؛ فاعلم أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ له الفضلُ الأعظمُ عليكَ، فهو الَّذي هَدَاك إلى ذَٰلِكَ، وإلَّا لَكُنْتَ كغيرِكَ ممَّنْ تنظرُ إليهم بعينِ النَّقص ممَّنْ يُخالطونَ المعاصي أو يُضَيّعُونَ أوقَاتهُم فيمَا لا ينفعُهم.

والبَلِيَّةُ الثَّانية: ٱبتداءُ القول بشيءٍ لم يتكلَّم به أحدٌ قبلَكَ، فيكونُ إنشاؤُه من مُبتكراتِ خيالِك، ومُبتدَعاتِ أفكارِكَ.

ومَحلُّ الذَّمِّ: فيمَا يُحتَاج إليه من العلمِ المشهورِ الَّذِي تكلَّم فيهِ أهلُ العلمِ طبقَةً بعد طَبَقَةٍ.

فالعدولُ عمَّا قالُوا، وإبداءُ سِواه ممَّا يُعَابُ به المرءُ؛ لأنَّ العادةَ الجاريةَ أن يكونَ هٰذَا الَّذي أبدَاهُ غيرَ مبنيٍّ علَى أصلٍ وثيقٍ، وَلا مَسبوقٍ بعالمٍ عتيقٍ، فهو يستحسنُ شيئًا ثمَّ يتكلَّم به، فمتى وُجِدَت تلك الحالُ مِنَ العبدِ فإنَّها بَلِيَّةٌ.

[**مسألةٌ**]: لو قالَ إنسانٌ: نحنُ سَمعنَاكَ تقولُ: الصَّلَاةُ هيَ: الحُنُو وَالعَطفُ، وَنحْن نحضرُ الدُّروسَ، ونقرأُ في الكتُبِ: (الصَّلَاةُ هِيَ: الدُّعَاءُ)، فَهَا أنتَ عندَكَ هٰذِهِ البليَّةَ!

[**الجواب**]: نحنُ نُحِبُّ النَّاصحَ الصَّادقَ الذِي يَنصحنَا، فإنَّنا بشرٌ غير معصومين.

والجوابُ: أنَّ هٰذَا القولَ الَّذي ذكرتُه مُتَّصفٌ بوصفينِ:

أحدهما: أنَّه مبنيٌّ علَى أصلٍ وثيقٍ؛ فإنَّ ٱسم (الصَّلاة) في كلامِ العربِ يقعُ على هٰذَا.

والآخر: أنَّ هٰذَا القولَ الَّذي ذكرتُه لكَ قدْ سُبِقْتُ بهِ من محقِّقينَ لِلْعلمِ، منهم: السُّهَيْلِيُّ، وٱبن القيِّم، وٱبنُ هشامٍ، والدَّمَنْهُورِيُّ في آخرينَ.

وقد زَيَّفَ ٱبن القيِّم دعوى أنَّ (الصَّلَاةُ هِيَ: الدُّعَاءُ) فِي «بدائعِ الفوائدِ» مِن أربعةِ وجوهٍ.

فكونُك لا تعلمُ هٰذَا لا يعْني أنَّ هٰذَا القولَ الَّذي سمعتَه قولٌ جديدٌ في العلمِ، وإنَّما هو جديدٌ عليكَ، أو جديدٌ على زمَانِ أهلِ علمٍ شُهِرَ عندَهُم قَوْلٌ حتَّى غَلَبَ عَلَيْهم هٰذَا القَولِ.

فالمذمومُ الممقوتُ هو: الَّذي لا يُبنَى على أصلٍ وثيقٍ وَلَا يرجِعُ إلى علمٍ عتيقٍ.

ثـمَّ محلُّ هٰذَا الذم: فِي مَا يتعلَّق بهِ تقريرُ أصولِ الدِّين وبيانُ أحكامِه ممَّا تَتابَع عليه النَّاس، دونَ مَا بُنِيَ عَلَى أصولِ الفهمِ والإدراكِ الَّتي جرى عليهَا أهلُ العلمِ.

فمثلًا: لو قلتُ لكُمْ: إنَّ منْ أنواعِ علومِ الحديثِ نوعُ (المَقْرُونِ)؛ وهو: أن يُذْكَرَ في الإسنادِ ٱثنانِ فأكثر؛ كأنْ يقولَ مسلمٌ: (حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ، وَيَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ، وَقُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ؛ جَمِيعًا عنْ إسماعيلَ بنِ جعفرَ) إلَى تمَامِه، فالثَّلاثة الأوائلُ تُسمَّى روايتُهُم (مقرونًا)، وَهٰذَا النَّوع لَهُ وقوعٌ عند المُحدِّثينَ، ولهُ منفعةٌ في علمِهِمْ، فمِنْ منافعِه أنَّ هٰذَا يُسمَّى (مُتَابَعَةً)، فَلَانٌ وفلانٌ وفلانٌ رَوَى الحديثَ عنِ إسماعيلَ بنِ جعفرٍ. إلى غير ذَٰلِكَ من منافعِه.

فحينئذٍ زيادةُ هٰذَا النَّوعِ ليس ممنوعًا منهَا؛ بل مأذونٌ بهَا من وجوهٍ كثيرةٍ؛ أيسرُها: أنَّ أَوَّل مَنْ صَنَّف وعَدَّد أنواع علوم الحديث ممَّنْ صَنَّف في مصطلحِ الحديثِ هو ٱبنُ الصَّلاح، فذكرَ أنواعًا، وزادَ أهل العلمِ عليه أنواعًا، فزاد العراقيُّ، ثمَّ زادَ ٱبنُ حجَرٍ، ثمَّ زاد السُّيوطيُّ حتَّى بَلَّغها أكثرَ من تسعينَ نوعًا.

فالأصلُ عند أهلِ العلمِ في هٰذَا أنَّه محلٌّ للزِّيادةِ، ولذَٰلِكَ ينبغِي أنْ يُحسِن المتكلِّمُ فِي العلمِ مواردَ الفهم من أصولِه الَّتي يُقرِّرها أهلُه حتَّى يعرفَ ما يجرِي فيه القولُ ومَا لَا يجرِي فيه القولُ.

وما كان ممنوعًا من القول فيه فالسَّلامة فيه ٱمتثال ما ذَكَره النَّاظم بقوله: (فَـاغْتَنِمِ الصَّمْتَ مَعَ السَّـلَامَهْ)؛ فَسَلَامَةُ دينِ الإنسانِ أن يمتثِلَ الصَّمتَ مُبتغيًا سلامة دينِه عندَ اللهِ، وعِرْضِه عندَ الخلقِ، على أنَّ مَنْ نَبُلَ فِي العلمِ يُبْتلَى بمَنْ لم يَصِل إلى مرتبةِ النُّبْلِ فيهِ مِمَّنْ يُزَيِّف أَقْوالًا صحيحةً في كلِّ قرنٍ وزمانٍ، وَلكِنَّ طريقَ إيصالِ الخيرِ إليهِ ليسَ بمُلاجَجَتِهِ ومجادلَتِه بالباطلِ، وإنَّما بنَصْب الحقِّ، ولذَٰلِكَ فإنَّه ما مِنْ مسألةٍ يستغربُها سامعُها أذكرُهَا إلَّا وأذكرُ أحدًا من أهلِ العلمِ قالَ بهَا.

فَهٰذِهِ المسائلُ الَّتي ذكرناهَا وأمثالُها من المسائلِ الَّتي يظنُّ بعضُ النَّاس أنَّ هٰذِهِ مسائلَ جديدةً؛ ما من مسألةٍ إلَّا وفيها من أهلِ العلمِ مَنْ تكلَّم؛ لأنَّ هٰذَا هوَ الأصلُ الَّذي يَسْلَمُ به دينُ الإنسانِ ويحصلُ به النَّفع للخَلْق.

فإنَّه ليس المقصودُ من جَمْع العلم أن يُنهِك المرءُ قلبَه ودينَه في مُراغمةِ النَّاس ومُجادلتِهم ومُجالَدَتِهِم، وإنَّما مقصودُ صاحِبِ العلمِ الصَّادقِ أن يُوصلَه العلمُ إلى اللهِ، ويكونُ هو مُوصلًا لِلخَلْق إلى اللهِ، فمتى كانت هٰذِهِ نيَّتُه فَتَح الله عليه بأنواع المعارف ولم يُشغله بالخَلقِ.

وما أحسن قولَ ٱبْنِ عَوْنٍ: «ذِكْرُ النَّاسِ دَاءٌ، وَذِكْرُ اللهِ دَوَاءٌ»، وقال مَكْحُولٌ الشَّامِيُّ: «ذِكْرُ النَّاسِ دَاءٌ، وَذِكْرُ اللهِ شِفَاءٌ».

فاشتغلوا بالدَّواء والشِّفاء، وٱحذروا من الدَّاء.



قالَ النَّاظم رحمه اللّهُ:

العِلْــمُ بَحْــرٌ مُنْتَهَــاهُ يَبْعُــدُ   لَــيْسَ لَهُ حَــدٌّ إِلَيْــهِ يُقْصَــدُ
وَلَــيْسَ كُلُّ العِلْــمِ قَـدْ حَوَيْتَـهُ   أَجَلْ وَلَا العُــشْرُ وَلَـوْ أَحْصَـيْتَهُ
وَمَــا بَـقِي عَلَيْــكَ مِنْـهُ أَكْـثَرُ   مِمَّــا عَلِمْــتَ وَالجَــوَادُ يَعْــثُرُ

❁ ❁ ❁

قال الشَّارح وفّقه اللّه:

ذكر النَّاظِمُ ممَّا يُستعانُ بهِ في تحصيلِ المطلوبِ المأمولِ معرفتُه ممَّا يُسَهِّل بلوغَ الأَرَب إدراكُ هٰذِهِ الحقائقَ المذكورةَ في هٰذِهِ الأبياتِ الثَّلاثَةِ، فكلُّ بيتٍ منهَا يُشَيِّد معنًى سامقًا ذَا بَالٍ في العلمِ.

فأوَّلُهَا: معْرِفَةُ مُلتمِسِ العلمِ أنَّ العلمَ واسعٌ لا مُنتهَى لهُ، كما قال النَّاظم:

العِلْــمُ بَحْــرٌ مُنْتَهَــاهُ يَبْعُــدُ   لَــيْسَ لَهُ حَــدٌّ إِلَيْــهِ يُقْصَــدُ

والثَّاني: معْرِفَةُ مُلتمِسِ العلمِ أنَّه مهما حَصَّلَ منهُ فلنْ يجمعَه كُلَّه، ولا عُشْرَهُ، ولوِ ٱجْتَهَد في إحصائِه؛ فإنَّ القُوَى البشريَّة تَتَناقصُ عن هٰذَا.

وثالثُها: معْرِفَةُ مُلتمِسِ العلمِ أنَّ ما بَقِي وفَضُلَ من العلم وراءَ ما أدركَه أكثرُ وأعظمُ، وهي حالُ النَّقْص الَّتي طُبِعَ عليهَا الإنسانُ، فالجَوَاد مهمَا كان قويًّا يَعْرِض لَه عِثَارٌ يسقطُ به.

فملتمِسُ العلمِ مهمَا ٱبتغَى منه مُجتهدًا فإنَّه يبقى وراءَ ما أدركَ منَ العلمِ علومٌ كثيرةٌ.



قالَ النَّاظم رحمه الله:

فَكُـنْ لِمَـا عُلِّمْتَـهُ مُسْـتَفْهِمَا ... إِنْ كُنْـتَ لَا تَفْهَـمُ مِنْـهُ الكَلِمَـا
القَـوْلُ قَـوْلَانِ فَقَـوْلٌ تَعْلَمُـهُ ... وَآخَـــرٌ تَسْــــمَعُهُ فَتَجْهَلُـــهُ
وَكُلُّ قَـــوْلٍ فَلَـــهُ جَـــوَابُ ... يَجْمَعُـــهُ البَاطِـــلُ وَالصَّـــوَابُ
وَلِلْـــــكَلَامِ أَوَّلٌ وَآخِــــــرُ ... فَافْهَمْهُمَا وَالذِّهْنُ مِنْـكَ حَـاضِرُ

قال الشَّارح وفّقه الله:

ذكر النَّاظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنَ الإرشادِ النَّافعِ لـملتمسِ العلمِ: أنْ يطلبَ فَهْم ما يُلْقَى إليه منهُ، وإذا عَسُر عليه فَهْم شيءٍ من معانِيهِ ٱجتهدَ في تَفَهُّمِه وسألَ عنه؛ لأنَّ **الأقوال الَّتي تُذْكَر لكَ في العلمِ هي بالنِّسبة لكَ نوعان:**

أحدُهُما: قَوْلٌ تَسْمَعُهُ فتَعْلَمُه وَلَا يَخْفى عَلَيْك.

والآخر: قَوْلٌ تَسْمَعُهُ فتجهله وَيَخْفى عَلَيْكَ.

فالأوَّل إذا وصلَ إلى قلبِكَ ٱستقرَّ فيهِ، فإنَّك إذا فَهِمْتَ معنًى من معاني العلمِ ووعَاه قلبُك وجدَ له مَرْبعًا ومَحلًّا فيه.

وأمَّا ما تسمعُه فتجهلُه ويخفَى عليك فإنَّك تحتاجُ فيه إلى الاستفهامِ والسُّؤالِ حتَّى تُدرِك معناهُ، فيستقرَّ في قلبك.

فإذا عَسُر عليكَ فَهْم شيءٍ فاستعِدْ تَفَهُّمَه؛ إمَّا بتكرارِ النَّظر منكَ في سماعِ كلامِ مُعلِّمكَ، أو فِي ٱلْتِمَاسِكَ منهُ إعادةَ بيانِ مَا سمعتَه منه ولم تفهمهُ.

وإيَّاك وإهمال فَهْمِ ما لمْ تفهمْه؛ **فإنَّ تَرْك شيءٍ سمعتَه دونَ فَهْم يُورِثُ آفتينِ:**

الأولى: ثِقَلُ الفَهْمِ؛ فإنَّك إذا تركتَ شَيْئًا وثَانِيًا وثالثًا تَبَلَّدَ ذِهنُكَ.

والأخرى: تَفْوِيتُ العلمِ؛ فإنَّك إذا تركتَ شَيْئًا وثَانِيًا وآخرَ فَاتَتْكَ أشياءُ من العلمِ لم تُحسِن معرفتَهَا.

مَعَ ما يُقارِن هاتين الآفتين من عِلَلٍ أخرى؛ كوقوعِ الشُّبهاتِ، وكثرةِ الاعتراضاتِ؛ ممَّا يُوجب الاعتناء بحُسن التَّفهُّم.

فتارةً: تستعيد كلامَ مُعلِّمك ممَّا يُحفَظ صوتيًّا، فتُكرِّره حَتَّى يَقَرَّ المعنى فِي قلبكَ.

وتارةً: تُذاكِر به صاحبًا لك، فرُبَّما يذكرُ لكَ مَا عَزُبَ عنه فَهْمُك.

وتارةً: تَستعيدُ - بأَدَبٍ - من مُعَلِّمِكَ فَهْمَ ما لمْ تَفْهمْه، ولَا تتركْ شيئًا تسمعُه من العلمِ دون فَهْمٍ؛ لِمَا يُورثُه من نَقْصٍ سبقَ ذِكْرُه وبيانُ وجهِه.

ثمَّ ذكر النَّاظِمُ أنَّ كلَّ سؤالٍ يتعلَّق به جوابٌ، فمُراده بـ(القَوْلِ): السُّؤالُ؛ بِدلالة مُقابلتِهِ بالجواب، وذَٰلِكَ فِي قولِهِ:

وَكُلُّ قَــوْلٍ فَلَــهُ جَــوَابُ يَجْمَعُــهُ البَاطِــلُ وَالصَّــوَابُ

فالجوابُ له جهتَانِ:

إحداهما: الجَوَابُ الصَّحيحُ؛ المَدْلُولُ عَلَيْهِ بقولِه: (الصَّوَابُ).

والأخرى: الجَوَابُ الخَطَأُ؛ المَدْلُولُ عَلَيْهِ بقولِه: (البَاطِلُ).

وتحقيقُ الحُكمِ على الجوابِ بإحدَى الجهتينِ مُناطٌ بموافقةِ الأدلَّةِ ومتابعَةِ الأَجِلَّةِ، فرِعاية هٰذَا يُوقِف العبد على جَلِيَّةِ الأمرِ فِي الحُكمِ عَلَى جوابٍ بأنَّه خطأٌ أَوْ صوابٌ، لَا بمجرَّد الذَّوق، أوِ الوَجْدِ، أو الخَاطِرِ، أو ما تَعَارَفَ عليه النَّاس أو مَا ٱعتادُوه في بلدٍ، فمثلُ هٰذِهِ المعاييرِ ليستْ ميزانًا صحيحًا فِي الحُكمِ عَلَى شَيءٍ منَ الأجوبةِ بأنَّهُ جوابٌ صَحِيحٌ أَو جوابٌ خطأٌ.

وهٰذِهِ القاعدةُ تختَصُّ ببعضِ الكلامِ فِي العلمِ، وهوَ: مَا وقعَ جَوابًا عَلَى سؤالٍ.

ثمَّ ذكر قاعدةً عامَّةً فيه، فقال:

وَلِلْكَلَامِ أَوَّلٌ وَآخِرُ فَافْهَمْهُمَا وَالذِّهْنُ مِنْكَ حَاضِرُ

والمقصودُ: أنَّ كلَّ كلامٍ فَلَهُ مبتدأٌ وله مُنتهًى، وله سِباقٌ وله لِحَاقٌ، وله إفرادٌ وله سِياقٌ.

فكمالُ فَهْمِهِ يكونُ برعايةِ مواقعِه، فتعتبِرَ أوَّلَ الكلامِ وآخِرَه، وسِبَاقَه ولِحاقَه، وإفرادَه وسياقَه؛ فيُوقِفُك ذَٰلِكَ على الفهمِ الصَّحيح له، فإن أخذتَ أوَّلَه وتركتَ آخره، أو أخذت سِباقَهُ وتركتَ لحاقَه، أوِ اكتفيتَ بمفردٍ دونَ النَّظر في تركيبِ سياقٍ؛ أوقعَك ذَٰلِكَ في رَدِّ كلامٍ حقٍّ، ودَفَعك إلى الزُّور والباطل في العلمِ، وهي حال كثيرٍ من النَّاس الَّذين يُبادرونَ إلى تزييفِ حقٍّ لأنَّهم ينظرونَ إلى أوَّل الكلامِ دونَ آخرِه، أوْ ينظرونَ إلى سِباقِهِ دون لِحاقِه، أو ينظرونَ إلى إفرادِه دونَ تركيبِ سِياقِه، فيقعُون فِي الغلط على العلم وأهلِه.

فمَنْ أرادَ أن يَسْلَمَ لهُ دينه وعِلمُه وعقلُه لاحظَ هٰذَا في مواقِعِه من الكلامِ، فإنَّه يوقفُهُ على المعانِي الصَّحيحة ويدفَع عنهُ دعْوَى الزُّورِ الَّتي يدَّعيها مَنْ يدَّعيها على المتكلِّمين في العلم.

ولا يمكن حصولُ تلكَ الحالِ إلَّا بأن تكون حاضرَ الذِّهن حينَ ذَٰلِكَ، والمراد بـ(حضورِ الذِّهنِ): إقبالُ القَلْبِ عَلَى المَعْنَى المُرَادْ فَهْمُهُ، فإنَّك إذا زاغَ ذِهنك مُدَّةً وحضر مُدَّةً أوقعَكَ فِي الغَلَطِ.

وأذكر من وقائع الأحوالِ: أنَّ أحدًا نَسَب إليَّ أنِّي أقول: إنَّ (هُو) من أسماء اللهِ!، وذكَرَ أنَّني قرَّرتُ هٰذَا في جامعِ الرَّاجِحي بـ(شُبْرَا)، وأنَّه كان أحدَ الحاضرينَ، فلمَّا ذُكِرَت هٰذِهِ الدَّعوى لي ضحكتُ وذكرتُ هٰذِهِ الأبيات.

فإنَّني كنت أُقرِّر الفرقَ بين الاسمِ المفرد للهِ، والاسم المضافِ؛ **فالاسمُ المفردُ:** هو

الَّذِي يأتي واحدًا؛ مثلُ: (الله).

والاسمُ المضافُ: هو الَّذي يأتي مجموعًا مع غيره؛ مثل: (ربِّ العالمينَ، ومالك الملكِ).

وذكرتُ أنَّ ٱبنَ القيِّم ذكرَ أنَّ الاسمَ المضافَ لا يُفصَلُ أحدُ طرفيهِ عن الآخرِ بمنزلةِ عَدم فَصْل حروف الاسمِ المفردِ، فلا يصحُّ أن تقولَ في ٱسمِ (القابضِ الباسطِ): أنَّ من أسماء اللهِ (القَابضُ)، أَوْ أنَّ من أسماء الله (البَاسطُ)؛ بلِ الاسم حينئذٍ هو (القابضُ الباسطُ)، فيمتَنِعَ الفصلُ بينهُمَا كمَا يمتنعُ الفصلُ بين حروفِ ٱسم (الله)، فلا تقول: (ا) ٱسمٌ، ولا (اللَّام) ٱسمٌ، ولا (هُ) ٱسمٌ، فسمع هوَ: (هُ) ٱسمٌ، فقالَ: إنَّ فلانًا يذكر أنَّ (هو) من أسماءِ اللهِ؛ لأنَّ ذهنَه حينئذٍ لمْ يكنْ حاضِرًا، وإنَّمَا كان شاردًا، فسمِع هٰذِهِ الكلمة فظنَّ أنَّ فيها تقريرًا لكونِ هٰذِهِ الكلمة (هُو) من أسماءِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

والعاقلُ يلتمس العذرَ للمتعلِّمينَ، فإنَّ هٰذَا ممَّا لا يُستغرَب منه؛ بل لا يُستغرَبُ ممَّنْ يريدُ بكَ السُّوءَ، فإنَّ هٰذَا أَمْرٌ جُبِلَتْ عليه خَلِيقَةُ الإنسانِ، فإنَّ النَّاس يتنافسونَ ويَتَصارَعُونَ ويريدُونَ الجَاهَ والرِّئَاسةَ والزَّعامةَ ويبتغِي بعضُهُم فِي بعضٍ خطأَهُ لإِذلَالِه وإنزالِه عن رُتبةٍ بلغها.

فالعاقلُ إذا رأَى هٰذَا في النَّاسَ عَامَلَهُم بمَا أَمَرهُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وعَقَلَ أنَّ هٰذِهِ حالٌ بشريَّةٌ، فَالمتَرفِّعونَ عنِ البشريَّة، المُزَكّون أنفسهم بما يُطَهِّرها لا يلتفتون إلى مثل هَٰذَا، ويرون أنَّ صدور هَٰذَا من المتعلِّمين زَلَّات ينبغِي إفهامُهم فيهَا القولَ الصَّوابَ.

والشَّاهدُ منَ الحِكَايةِ: أَنَّ مَا أَرشَدَ إِليهِ مِن كوْنِ حصولِ تِلكَ الحَالِ لَا يُمكنُ إلَّا مع حضور الذِّهنِ، وأمَّا معَ شُرُودِه فإنَّه لا يحصُل للمرءِ ذَٰلِكَ.



قالَ النَّاظم رحمه الله:

لَا تَـدْفَعِ القَـوْلَ وَلَا تَـرُدَّهُ ... حَـتَّى يُؤَدِّيـكَ إِلَى مَـا بَعْـدَهُ
فَرُبَّمَـا أَعْيَـا ذَوِي الفَضَـائِلِ ... جَـوَابُ مَـا يُلْقَى مِـنَ المَسَـائِلِ
فَيُمْسِكُوا بِالصَّمْتِ عَنْ جَوَابِـهِ ... عِنْدَ ٱعْتِرَاضِ الشَّـكِّ فِي صَـوَابِهِ

قال الشَّارح وفّقه الله:

لَمَّا ذكر النَّاظِمُ في البيت السَّابقِ ما يُعينُ على فَهْمِ الكلام حَذَّر من آفةٍ تعرِض لمَنْ ٱستغلَقَ عليهِ فَهْم شيءٍ منه، وهيَ المبادرةُ إلى دَفْعِه ورَدِّه، فمِنَ النَّاس مَنْ إذا ٱستغلَقَ عليه فَهْمُ شيءٍ لم يُدركْه بادرَ إلى رَدِّه ودَفْعِه.

والواقِي من السُّقوطِ في هٰذِهِ الآفةِ: هو ملاحظة ما يأتي بعد ذٰلِكَ الكلامِ، فرُبَّمَا سمِعتَ كلَامًا عامًّا يفتقرُ إلى التَّخصِيصِ، أو كلامًا مُطلقًا يحتاجُ إلى التَّقْييد فبادرتَ إلى إنكارِه قبلَ ظهورِ تَمَامِه، وهوَ المُعينُ عَلَى فَهْمِه وإفهامِه؛ كقَولِ الله تعالَى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤﴾ [الماعون]، فهٰذِهِ الآيةُ لا يتمُّ معناها إلَّا بقَرْنِها بالآيةِ الَّتي بعدَها، في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥﴾ [الماعون]، فمَنْ يُقرِّر معنَى الويلِ للمصلِّين بإطلاقٍ مُبطِلٌ، ومعنى يُقرِّر معنًى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤﴾ إذَا كانُوا علَى الحالِ الَّتي ذكرها الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥﴾ [الماعون] كان مُحِقًّا فيما قرَّره.

فإنْ أعيَا السَّامعَ فَهْمُ كلامٍ وتطلَّعت نَفْسُه إلى رَدِّه ودَفْعِه وإبطالِه حَسُنَ به أن يَرُدَّ

بعضَه على بعضٍ، قبل الهجومِ على إنكارِه وتزييفِه؛ ٱقتداءً بمسالكِ أهل العلم فيمَا هُم عليهِ من أجوبةِ مسائلِ الخلقِ في ما يحتاجون إليه من الحقِّ.

فإنَّ أهلَ العلمِ لا يُبَادِرُونَ بجوابِ ٱستفتاءاتِ الـمُسْتَفْتِينَ حتى يُتِمَّ الـمستفتِي كلامَه، كمَا قالَ:

فَرُبَّمَـــا أَعْيَـــا ذَوِي الفَضَـــائِلِ   جَـوَابُ مَـا يُلْـقَى مِـنَ المَسَـائِلِ
فَيُمْسِكُوا بِالصَّمْتِ عَنْ جَوَابِـهِ   عِنْدَ ٱعْتِرَاضِ الشَّـكِّ فِي صَـوَابِهِ

فمِنْ حالِ كُمَّلِ الـمفتِينَ إذَا عُرِضَتْ عليهمْ فتْوًى أنَّهـم لا يُبادرُونَ إلَى الجوابِ فيهَا حتَّى يتبيَّن لهم تمامُ القولِ من الـمستفتِي، ثمَّ يُجيبونُه، فتلكَ الحالُ الَّتي تصلح بها خَلْقُ النَّاس في الفتْوَى هيَ الحالُ الَّتي تصلحُ بهَا حالُهُم في فَهْمِ العلمِ، فَلَا يكمُل لهمُ الفهمُ ولا يَتِمُّ لهمْ إدراك معانيهِ إلَّا باستِتْمَامِ مبانيهِ، فإذا صارت وافيةً تبيَّن لهمُ المعنَى.



قالَ النَّاظم رحمه اللّٰهُ:

وَلَوْ يَكُونُ القَوْلُ عِنْدَ النَّاسِ ... مِنْ فِضَّةٍ بَيْضَا بِلَا ٱلْتِبَاسِ
إِذًا لَكَانَ الصَّمْتُ مِنْ عَيْنِ ... فَافْهَمْ هَدَاكَ اللهُ آدَابَ الطَّلَبْ

❁ ❁ ❁

قال الشَّارح وفّقه اللّٰه:

ذكر النَّاظِمُ في هٰذَين البَيْتَيْنِ ما يُقَوّي وازِعَ الصَّمْت في النَّفْس، ويدعُوهَا إلى الإمساكِ عن كثيرٍ من القول، وهمَا معنَى حِكمةٍ سَيَّارةٍ: (إِذَا كَانَ الكَلَامُ منْ فضَّةٍ؛ فَالسُّكُوتُ مِنْ ذَهَبٍ).

وَالكلام الَّذي يكون فضَّةً هوَ: ما لا يتبيَّنُ نَفْعُه من ضَرَرِه، أمَّا بَيِّنُ النَّفْعِ فإنَّه من خالِصِ الذَّهب، كَمَا أنَّ بَيِّنَ الضَّرَرِ شواظٌ من اللَّهبِ.

فالكلام المُرادُ إخراجُه له ثلاثةُ أقسامٍ:

أحدُها: كَلَامٌ بَيِّنُ النَّفْعِ؛ وَهٰذَا مِنْ خَالِصِ الذَّهَبِ.

وثانِيهَا: كَلَامٌ بَيِّنُ الضَّرَرِ؛ وهٰذَا شُواظٌ من اللَّهَبِ.

وثالثُها: كَلَامٌ لا يتبيَّنُ نَفْعُه من ضَرَرِه؛ فهو الَّذي يُعْدَل بالفضَّة، ويكون السُّكوتُ حينئذٍ من ذهبٍ، فإنَّ العبد مأمورٌ بقولِ الخيرِ أوِ الصَّمت عمَّا عداهُ.

والحِكمة المذكورةُ - (إِذَا كَانَ الكَلَامُ منْ فضَّةٍ؛ فَالسُّكُوتُ مِنْ ذَهَبٍ) - مأثورةٌ عن جماعةٍ منْ القدمَاءِ؛ منهم: نَبِيُّ الله سُلَيمَانُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولُقْمَانُ الحكيمُ - الرَّجل الصَّالح.

ثمَّ ختم النَّاظم بالتَّأكيد على فَهْم ما ذَكَر في هٰذِهِ المنظومةِ من الآدابِ فقالَ: (فَـافْهَمْ هَدَاكَ اللهُ آدَابَ الطَّلَبْ)؛ داعيًا إلى حُسْن تَفَهُّمِ هٰذِهِ الآدابِ، فإنَّ فَهْمَهَا يدعُو إلَى العملِ بهَا، كمَا أنَّ عدمَ فَهْمِهَا يحولُ دونَ العملِ بهَا.

وقَرَنَ الأمر بالدُّعاء ترغيبًا فيها، وتحبيبًا لها إلَى النُّفوس؛ ليحرصُوا عليهَا، ويمتثلُوا مُقتضَاهَا.



قالَ النَّاظم وفّقه اللّٰهُ:

أَبْيَاتُهَـا مَـعَ الزِّيَـادَاتِ الَّـتِي حَبَّرْتُهَـا بِـأَرْبَعِينَ عُـدَّتِ

❀❀❀

قال الشَّارح وفّقه اللّٰه:

خَتمَ جَامعُ هٰذِهِ النُّبذة بهٰذَا البيتِ من زياداتِه، الـمُبيِّن عدَدَ أبياتِ هٰذِهِ الـمنظومةِ، وأنَّها أرْبعـون بيتًـا؛ لِي منهَـا خَمْسَـةٌ؛ أربعـةٌ في أوَّلِها، وواحـدٌ في آخرهَـا، ومـا بقـيَ فهـوَ أصـلُ الـمنظومةِ.

ومعنى قولِه: (**حَبَّرْتُهَا**)؛ أَيْ: زَيَّنْتُهَا بِزيادَةِ الحِبرِ فيهَا، فإنَّ التَّحبيرَ هوَ التَّزيينُ.

وَمِن تَزْيِينِ الخَطِّ: تسويدُ حِبْرِهِ.

فإنَّ الحِبرَ إذَا كَانَ قَوِيًّا بَانَ الـمكتوبُ وَظَهَرَ، كَمَا يبدُو ذَٰلِكَ جليًّا إذا قَارَنتَ الأبياتَ الَّتي زِيدتْ ببقيَّةِ الأبياتِ، وهي مُحَبَّرَةٌ في خَطِّهَا، وغيرُها منْ أصلِ الـمنظومةِ مُحَبَّرَةٌ في معانِيها النَّافعة.

فهٰذِهِ الـمنظومةُ هي من أحسنِ ما نُظِمَ في آدابِ الطَّلَب ممَّا هو وجيزٌ؛ كما ذكره أَبُو عُمَرَ ٱبْنِ عَبْدِ البَرِّ فِي «جَامِعِ بَيَانِ العِلْمِ وَفَضْلِهِ».

فحقيقٌ بنَا جميعًا أن نحرصَ على حِفْظ هٰذِهِ الـمنظومةِ أو تَكرارهَا حتَّى ترسخَ معَانيهَا فِي نفُوسِنَا، وأن نُحسِن تَفَهُّم تلك الحقَائقِ ثمَّ نمتثلَهَا بالعملِ.

فإنَّ بابَ الآدابِ ممَّا وقعَ فيهِ العَجب العُجاب، فَضَيَّعهُ كثيرٌ منَ الـمنتسبينَ إلَى طَلبِ العلمِ، فحُرِمُوا العلمَ بسببِ تضييعِ الأدبِ، فمَنْ ضَيَّعَ الأدبَ حُرِمَ العلمَ، ومَنِ ٱلتزمَ الأَدَب فهوَ جديرٌ بأنْ يكونَ من أهلِ العلمِ.

وبهٰذَا البيانِ يتمُّ بيانُ معانِي هٰذِهِ المنظومةِ على مَا يوافقُ ويناسبُ المقَامَ.

تَمَّ الشَّرْحُ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ
لَيلةَ الخَميسِ الخامسِ من شَهْرِ المُحَرَّم
سَنَةَ ثمانٍ وَثَلاثِينَ بَعْدَ الأَرْبَعِمائَةِ وَالأَلْفِ
فِي مَسْجِدِ مُصعب بن عُمَيْرٍ بِمَدِينَةِ الرِّياض





فَوَائِد


فَوَائِد